دار التأليف والترجمة والنشر
جامعة الخرطوم



الطبعة الاولى

١٩٧٤

وجدان أفريقيـــا

جمال محمد احمد

وجدان أفريقيا

دار التأليف والترجمة والنشر
جامعة الخرطوم

الناشرون :

دار التأليف والترجمة والنشـــر
جامـــعة الخرطوم
ص . ب . ٣٢١ الخرطوم

الطبعة الاولى

١٩٧٤

الطابعـــون : دار الطباعة
دار التأليف والترجمة والنشـــر
جامعة الخرطـــوم

تقـــديم

هذا حديث عن الديانات في افريقيا . وأي أثر تترك هذه الديانات في معتنقيها. ابحث عن هذا الاثر فيما كتب الشباب في العقد الماضي من شعر ورواية وقصة قصيرة وبحوث في الاصلاح الديني والتقـــدم الاقتصادي . ترى اذن اني احاول أمرا غير يسير ، وستـــدرك أن هذا البحث اقتضاني عناء مااقتضانيه بحث آخر في هذه السلسلة . كتبته من دفاتري وذاكرتي في الفترة التي كتبت فيها عن المسرحية الافريقية ، التي رأيت قبل شهور ، وقدوصفت لك نهجي في تلك الفترة بايجاز حين قدمت لك ذلك الكتاب . انه بعيد عن نهجي في مطالعاتي الاولى ، التي ستصدر ثانية بعد شهور . بين مطالعاتي تلك ، وبين البحثين عن المسرحية ووجدان افريقيا ست سنوات واكثر .

ماكان يمكن أن يكون النهج واحداً بعد هذه السنين . لقد تغيرت بعدها الحال حولي وداخلي . انا سريحة من زماني وذاتي . كان ذاك زماناً هادىء البال ، يمشي على هون . ايامنا هذه قلقت ، ماعاد في طوقها ، أن تستقر بعض وقت على شيء تراه تصفه واثقاً انه سيظل مكانه ذاك حتى حين . منظمات الانسان ومنشئاته وابتداعاته أصبحت حقا امانة تنوء بحملها الجبال ، روحه مثقلة بهموم ، لا يعرف مرفأ يحميه من أعاصير تقدمه ، والتقدم كان كل عصر مضى منبع الاوجاع . يعطيك كثيراً ويأخذ بعض شيء لقاء .

كان بحثي هذا ورقات أعددتها لندوة عن « الله والانسان » في الجامعة الامريكية في بيروت ، وتيسر لي فراغ ، جـــلست أعززها لتكون أوفى وأشمل ، فوجدتني غير قادر على البعد بذاتي عما أكتب . اعرب قصيدة مثلا لتقوم شاهداً على رأي اسوقه ، فأذا بصاحبها أمامي ، إن كان ممن عرفت عـــلى أيامي الاول فاكره أن أحجب عنك صورته ، والا احدثك عن قسماته واسلوبه في الحديث ، وامضي احدثك عما عرفت من افراحه

وتعسه ومباذله .. انتقل لواقعة في التاريخ القريب لافريقيا ، فتتزاحم الاشباه والنظائر من ماض بعيد ، فاكره الا أشركك هذا الذى أحسه ، فأقف أرجع للوراء ، للجذور ، راجيا ربط القـــديم بالحديث ، واقرأ الغداة ماكتبت في العشي وأهم بأن اقتطع فقرات ليتصل الحديث . فقرات ، اقول انها فصول ، تحول دون السرد متصل الحلقات ، تقود واحدة لأخرى ، ونهاية . وتعز الكلمات على ، أحنو عليها ، احجم اقول : ماذا جنت لتذبح . كان عناء أدعو لك الا تشقى به كما شقيت .

أنا اجهد لاصور لحظات من الوقائع والتاريخ والمشاهد يمسك بعضها برقاب بعض . لاتقف كي تنعم النظر ترى الملامح . تعدو ، تكاد تخطف البصر . اوراقى تعيننى ، ولكنها تقعد عن أن تسير المدى كله ، لانى اقحم ذاتى بين سطورها ، لامسك بالذرارى والدقائق ، ويستحيل ان تجعل من شق ثانية صورة . تريد شبيهات لها تضعها جنب جنب . ، لتكتمل صـــورة ترتضيها ويرتضيها ، الحق والجمال . ماتيس وحده الذى ســاق الدوائر والمكعبات والمربعات والالوان ، سوقاً جريئـــاً جعل من شتاتها لوحاته الخالدات . فئة من كتاب الرواية في باريس بالذات ، أشهر مشاهيرها دوراس ، يجهدون ليعطوا الكلمات قدرة على المسك باللحظات الجارية ، ولا يصيبون في رواياتهم ذلك القدر الذى اتيح لماتيس في لوحاته .

من يدرى ربما رأيت حين تضـــع كتابى هـــذا أن التجـــربة تستحق عناءك .

جمال محمـــد أحمـــد

١٦ ر ٨ ر١٩٧٣

(١)

الدين فى الاطارين الثقافى والاجتماعي فى افريقيا

بعد عامين اثنين من رؤية هارولد مكملان « رياح التغير » وهو يتحدث لبرلمان جنوب افريقيا ، على أيام فيرفورد ، ينذره هو وشيعته من معقبات سياسته التى ينهج ازاء السود والسمر ، وفلسفاته التى يقيم عليها تلكم السياسات ، رأى طلاب الفكر الافريقى ودارسوه بعين بصيرتهم ريحاً أخرى تهب من القارة وعليها . كانت هذه الريح أفعل أثراً من السياسات التى اشار اليها مكملان . أبقى ان أردت . لكنها لم تكن بينة واضحة تراها كل عين . كانت خفية إلا على الذين خبروا ماضى افريقيا ، ووضعوه مكانه الحق فى موكب البشرية ، لا اسراف تمليه عاطفة لا تبصر غيرما تريد لتبصر ، ولاغلو يمليه حمق القوة والتيه بالذى حققت أوربا ولم تحققه افريقيا .

لم يتح للساسة أن يروا « رياح التغير » الاخرى . الساسة ، الا من عصم ربك ، كانوا انذاك يعيشون من اليد للفم ، كما يعبرون . ما يقظوا الى ان الانسان الافريقى يبحث فى عناء يضنيه عن سبيل جديد للسلوك فى دنياه المعاصرة ، يبحث عن طرائق أخرى للتفكير غير طرائقه التى ألف فى بيته وحقله أو درب عليها فى مدرسته ، جامعته ، جامعة كنيسته أو معابده فى الغابة . يبحث لأنه يريد ليلقى حاجيات عصره الفكرية والمادية ، لقاء المقتدر الكفاء . يريد نظاما للعيش والسيرة ، يتفق وأقداره الجديدة . خفت يد الغازين من على منكبه ، ولم يعد للسادة المحليين مكانهم ذلك السامي العلي . انتهى الدارسون للحياة الاجتماعية والسياسية وهم يرعون القديم يتهاوى والجديد فى الجنين ، إلى ان ريحا ذات ألسن ستة ، تدق كل واحدة منها دقا رفيقا على باب قلب ألافريقى المعاصر . تنافس بعضها بعضا هذه الالسن ، تتزين تعرض الذى تملك من فضائل ومحاسن ، والافريقى يدير الامر فى فكره ، كل لسان ذلق

يقنع . يتساءل الافريقى اين يتجه ؟ أى لسان يطيع ؟ أيها يختار مصباحا هاديا لعيشه الجديد :

آلهته القديمة ؟

المسيحية ؟

الاسلام ؟

الوحدة الافريقية ؟

الشيوعية ؟

الآلة ؟

لكل واحدة من هذه اسلوب للفكر والعمل ، على انسان افريقيا أن يختار كي يسير على نهج . يسائل نفسه ثانية .

لقد عرف الاسلام المسيحية وخبرهما ، ورأى والديه يهتديان بهدى الآلهة القدامى ، والوحدة الافريقية أتت بفلسفتها وشعرها تستهويه ، تقول له ان خيره لن يكون الا بضعا من خير كبير . أمنا افريقيا . والشيوعية لا تنى تذكره بالذى كان من عسف أوربا به و بارضه وتمنيه بالذى يمكن أن يكون على يديها ، وهى التى نقلت الفلاح الروسى من حال لحال فى عقود معدودات ، ويرود السموات اليوم لعرف ماتخبئ الكواكب والنجوم . والآلة رمز التقدم المعاصر تقتضى طقوسا ولا طقوس اديان السماء : التراكتور فى المزرعة ، الحاسبات فى المصنع ، ومريحات الحضارة الآلية فى الدار . كلها تقتضيه دقة فى الفكر والسلوك ونهجها فى الحياة . سيدات آمرات ، ناهيات . بكلمة واحدة : آلهة جديدة لا آلات حسب .

لكن الحيرة الروحية فى افريقيا ليست حديثة كل هذه الحداثة . لا تعود للستينات . قديمة لحد . رآها علماء وصف الانسان ورآها المؤرخون ، وبعض كتاب افريقيا ، الاقدمون منهم والمحدثون . أصواتهم لم تصل مسامع الناس الا حين لحظ الامر الدعاة ، كتاب المقالة والاذاعة ، المعلقون السياسيون وغيرهم ممن ييسرون على العوام ما يكتبه الخواص . روث كريستانن مثلا ، باحثة

في علم وصف الانسان ترحلت كثيرا في افريقيا ، وعاشت زمنا بين بعض شعوبها واستقر الامر بها اطول في غانا . تجمع لديها قدر غير يسير عن الحياة الروحية عند قبائلها ، في القرى والمدن ثم انتهت من دراســاتها بكلمات ، تصور الوضع الروحي في غانا . قالـــت :

« سوداء باساطيرها القديمة قدم الانسان على الارض ، حين تديرها في الذهن تستحيل الصورة رمادية . ماء عكر حين ، تلتقي النفوس الافريقية بالغرب المسيحي . »

وتتساءل بعد أن تصف معالم هذا الخلط واعتكار الروح ، وتسرد عليك انباء مواقف بعينها رأتها ، وتحديات استجابت لها الروح الافريقية ؛ تتساءل روث :

« ماذا سيكون من أمر هذه الروح يارب ؟ تظل سوداء ؟ تقف عند هذه الرمادية ؟ أتأسن ، لاتتحول ؟ ام سيستطيع نور مضيٌ أن يخترق هذا الضباب تكاثف منذ القدم ، يحوم حوله شيٌ جديد قادم من الغرب؟ ما ادرى ، ان كان سيقدر لهذه الروح أن ترى الحرية والحياة ، نتاج هذا اللقاء ؟ هذه مشكلة افريقيا الاولى . مشكلة الروح . أين ؟ »

***

في العام عينه ، عام ١٩٥٦ ، خرجت من القارة رؤية من الرؤى التي رادت الطريق ، وجاءت بعده أخريات ، تملأ اليوم مكتبات كل عاصمة . منقوبتي فنان أعرف انه ماكتب روايته ليضل الناس أويهديهم . ما لهذا يكتب فنان في حجم منقوبتي . كتب من قريته في الكمرون ، وكان منطقيا ان يصوغ مايبدع من عاطفته الاولى . تمت يوم ولد في قريته . الابداع الوافر لا يقوم إلا على تجربة ذات حس.الحياة الروحية لانسان افريقيا أخذت الشطر الاكبر من روايته الساحرة . جاء بعد منقوبتي كثيرون يرون رؤاه في المشكلة الروحية ، لكن شخوصه ظلت فيما نعتقد هي النماذج لما رأى الاخرون من

بعده . لاأستثنى من هذه الحقيقة حتى سيد الرواية الافريقية ، من شباب هذه الايام ، شنوا أشيبى .

قصة منقوبتى ساذجة السطح ضاحكة ، تلتقى فيها برجال ونساء واطفال كثيرين ، لكن قسا من أوربا وخادما له من الكمرون ، يعنياننا فى هذا الذى نحن بصدده . القس قضى زهرة عمره وخريفه فى الكمرون ينتقل فى قراها ومدنها ، كما تنقل فى غير الكمرون من اقطار افريقيا ، يعلم ، يبشر ، يعالج المرضى . تأتى ساعة الرحيل شتاء العمر ، فلا يرى وهو يتأمل عمل عمره كله ، اثرا كبيرا للنور الذى حسب انه جاء به . ما اسر القلوب بمدارسه ، ومواعظه ، ومستشفياته . نراه فى الرواية يعد حقائبه كئيب النفس غثيان . بمبا التى عرفهاقرية من بيوت القصب فى سبيلها لتكون مدينة صغيرة ، واهلها شرعوا يسألون أسئلة ، وما كانوا يفعلون من قبل . يثقون فى الذين جاءوا يعلمون ويعالجون ، لكنهم يعجبون يتساءلون لم ؟ واحد من هذه الشخوص كان قريبا من القس الاوربى . كان صبيه ، خادمه ، والخدم يعجبون بالذين يخدمون ، فتنة بعيشهم وثرائهم وآدابهم . وما كان منقوبتى غافلا عن هذا . كان يراه رأى العين ، فأنطق الصبى على النحو الذى رأى وعرف .

قال الصبى وهو يعد حقائب قس القرية ذاهبا أهله كسير القلب . من يدرى ، ربما رأى الخادم برهان ربه ، وهو ينعم النظر فى تعس سيده الذاهب أهله ، ما وعى كثيرون من قرية بمبـا كلامه ، ولا ازدهتهم المدارس والمصحات تمتم الصبى « ماذا بنا نحن السود ، ياترى ؟ ما اعجبنا ؟ كان الاب يقول لى ، ساعات حيرته من عجزه : أنتم ضحكة . مسخرة » ويتأمل الصبى يرتاب يقول « من يدرى ربما كان صحيحا الذى جاء عنا فى الكتاب المقدس . خلقنا نحن السود ، واللعنة تطوف فوقنا . لايمكن لهذه الاحداث ان تقع فى بلاد ابيناالراحل . »

ويرحل القس كسير القلب ، حين رأى ان جديده الذى أتى به عجز أن يذهب لأى عمق . ظل نورُ جديده على السطح جنبا لجنب مع القديم العنيد .

طفق الصبي خادم القس يحوم بذهنه، لايعرف كيف يفكر فى هذه المعميات، تتردد فى ذهنه لعنة الزنج فى الاصحاح التاسع : « ملعون كنعان عبد العبيد يكون لاخوته . مبارك الرب اله سام ، وليكن كنعان عبد العبيد ، اللهم ليفتح الله ليافث فيسكن مساكن شام . »

(٢)

يتحسس الانسان الافريقى ، طريقا جديدة للحياة ، تقوم على ايمان مستنير بالله ، وايمان بالعلم ، لايجعل منه اداة في يد الآلة كما فعل بالانسان الاوربي ، يريد أن يبقى عليه انسانيتـــه . بعد اعوام قليلة من منقوبتى وقسه وخادمه ، صور الشيخ أحمد كين عصفورا من الشرق ، مابلغ فيه مبلغ الحكيم فنا وابداعا ، لكنه اعطى القارى الافريقى نموذجا بشريا بعيد ان ينساه. ديالو طالب في باريس كما كان محسن ،ولكن ديالو يعيش الحياة سلسلة لاتنقطع من الاحزان والتأملات ، يسائل نفسه كل منحنى يقول :

«من انا ؛ لم اعد واحدا من اهلى الديالوب ، واضح الذهن والهدف . أرى غربا هنا اعرف ماهيته ، أدرك المعالم فيه برأس لايقلق لايضطرب ، واعرف — في النظر على الاقل — ما ينبغى لى وما لاينبغى . أعرف الذى يصلح أن أحمل معى لأهلى يوم أعود ، والذى امتع به هنا أدعه حيث لقيته . أكثر الاشياء هنا واضحة ،. لكنى انا المعضلة. أضحيت شخصين يعيشان في جسد . ما عدت ذلك الرأس الواضح السهل الذى جئت به من بلدى . ضباب يحلق فوقى ، يحوطنى غمام . ذهنى هذا القلق يحيا على حد موسى ، وعليه ان يختار. يتعسنى انى لست اثنين. شخصين . أنا طبيعة واحدة ، لكنها غريبة كل مكان ، لا موئل . الحنايا كثيرة والزوايا . » .

كان هكذا محسن في عصفور من الشرق . يمتع بالمسرح ، بالموسيقى ، بالصبايا ، ما عنده غير ان يعيش ملء ذهنه وجسده ، قبلهما كان نهرو ويعيش الحقيقة الوسطى تتناوحه رياح شرقه العتيق ربى عليها وغربه الذى أحب ثقافته ووسائله . يسائل « من أنا ، أين أنتمى ؟ » لايحب ، ولايمقت ولكنه كان ، حائرا حيرة ديالو . كلاهما تضنيه قصة الانتماء ، بخلاف بين آسيا وافريقيا .

وقصة الروح في افريقيا عني بها علماء اوربا يتساءلون كما رأيت أي رياح ستحتوي القـــارة . ذاك لأن منقوبتي المسيحي وأحمد كين المسلم رجلان من أهل الخلق والابداع يعنيهما ان يريا رؤية الفنان . ذاك ما يستطيعانه. علماء أوربا وقسسها يكتبون وفي نفوسهم غير قليل من الحذر والتردد . ما جرؤ أحد على كلمة فصل في الذي ستختار افريقيا من الرياح الستة ؛ واريد لنا ان نحاول تلك الكلمة الفصل ، نسير نحوها عن طريق وجدانه وعقله ، فهذان رائدان لايكذبان ، ولن يكون يسيرا طريقنا عبر عقل الافريقي كما قلت ووجدانه ؛ لاننا لن نجد ارقاما هادية ، ولن نلمس شيئا بعينه نحسه .سنسير عبر مجردات تترك في الذهن آثارا وفي العقل اتجاهات . نهج كان في خاطري وأنا أقرأ روايات افريقيا ، وشعر شعرائها ، وكتابات كتابها ؛ وشجعني على تجربته ما قصصت عليك من أمر نيك ولاشيارا منتي واحد من اعظم ما عرفت الكلمة الايطالية في تاريخها المعاصر. ستذكر قولته وهو يقدم مطالعته لتولستوى وستندال ،وثلة من الاولين :

« في كل رواية ذات مكان بناء من الرأي ، تحده معالم ترتبط بالسرد ارتباطا لصيقا ، وتتعلق به في غير حذق ، ترى الآراء بين يديك ملقاة ، وتراها ان انت انعمت النظر . لن تجد رواية معاصرة ، لاتحمل في طياتها نظرات في المجتمع ، في التاريخ ، في الدنيا . » .

وهنا أحب أن أضع بين يديك ما انتهيت اليه انا مما سمعت وما قرأت : ستبقى افريقيا متدينة . أذهب أبعد . يدرك الذكاء الافريقي ، ان اثر القارة سيقوى ويضعف في عالمنا المعاصر بالمواقف الروحية التي تتخذ ، اكثر من أثرها الذي يمكن أن تحدثه يوم تقتسر ثرواتها المادية من المالكيها الآن . تدينُ افريقيا ــ في زعمي انا ــ حقيقة . يخطئُ من يحسب ان عنصرا آخر من العناصر التي قلنا تدق دقا عنيفا على باب روحها ، سينتصر . سأسوق الدلائل على زعمي هذا ولن استعين بالذي كتب الاوربيون قديما أوكتبه العرب ، وكلاهما ان علمت كتب مجلدات . سأستعين بصوت افريقيا . انه كل مكان

الآن . استعاده بإرادة أفراد ودول من هنا فى القارة ؛ وهنالك خارج القارة . سأستعين بالرأى الافريقى أنقله نقلا عن أهله وسأرفد هذا بما خبرت أنا لأجيب على هذا السؤال الكبير : أين تتجه افريقيا روحيا ؟

لم يعد وقفا على الاوربى أن يعالج شئون افريقيا فالافريقى قد دخل الميدان كما قلت ، و من حقه على العالم الذى خذله واستخذاه قرونا ، ان يصيخ له الآن . انه صاحب الشأن ، كما نعبر . سيكون حديثى اذن عالة على الرأى الافريقى نفسه ، ، فقد وضحت الطريق إلاقليلا ، بعد ان ولى أمره وأعترف به غيره . والحق هوان الافريقى ولى أمره الثقافى والتاريخى قبل أن يلى أمره السياسى . عشرون عاما الآن وهو يسعى جاهدا يكشف ماضيه البعيد وأمسه القريب ؛ يضئ بهما طريق المستقبل ودهاليز الحاضر يدرس فى جلد ليصل نقطة يعمل منها على نمائه شخصا ذا كيان مميز ، بين من يشركونه العيش فى العالم الفسيح ، وليكون من بعد رجلا أو أمرأة قادرة على فهم واقتناء مريحات هذا الزمان ، أعنى آلاته العدة : زر يدير النار لا نفخ أو رماد ، زر يدير انغام موزارت ان كان من عشاقه ، زر يدير غسالة يكفيه العناء والرهق ، الى آخر هذه الازرار التى تيسر العيش تبقى لك من وقتك بقية لتحيا ممتعا هادىء البـــال .

كل شئ يقوله الافريقى عن روحه ، عن دينه يهم . دعنا نقض بعض وقت مع الذى قال ويقول ، ولا أعرف نقطة بدء أنفع لنا فى بحثنا هذا من اجتماع الكتاب والمفكرين وأهل الدين من افريقيا وزنوج امريكا عام ١٩٥٩ فى روما . انتهى ذلك الاجتماع بكتاب ضخم ربت صفحاته على الثمانمئة ، تتحدث عن اقتصاديات افريقيا ، استقلالها ، آدابها ، قياداتها . يعنينا من الذى قيل فى ذاك المؤتمر رأى هذه الصفوة عن الدين فى افريقيا . قال الموجز فى أول عبارة سجلتها اللجنة التى اوكل اليها صياغة القرارات ، ان مؤلفى القرارات «افريقيون مؤمنون» ينتمون لكل عقيدة فى القارة ، للاسلام ، للمسيحية ، لأديان افريقيا القديمة . ويمضى الموجز يعرّف الدين يحدد معالمه فى رأى

الصفوة التي تنادت للمؤتمر في روما . قالت انه نشاط انساني يرجو للواحد ان يكون تاما ، شاملا ، جميعا لاتأسره المادة وان كان يقدرها ، ولا تأسره الروح وان كان يحترمها . يطيل الموجز في الذى أوجز العقاد رضى الله عنه في «فلسفة حياة » :

زاهد الهند نعى الدنيا وصام
أنا أنعاها ولكن لا أصوم
طامع الغرب رعى الدنيا وهام
أنا أرعاها ولكن لا أهيم
بين هذين لنا حد قوام
وليسلم من كل حزب من يلوم

يشير هذا التعريف «الحد القوام » ، الى ان القارة الافريقية تدخل العالم العريض في «زمن اختلطت فيه القيم» كما قال المؤتمرون. قليلون هم الذين راضوا انفسهم على قيمة بعينها من القيم المتناثرة حول الناس كل مكان . ويمضى الموجز يقول : «ان ثقافاتنا الافريقية الزنجية عليها ان تحاذر من ان تلفها أية قيمة من هذه القيم تفقدها أصالتها ، ولن يقع هذا إلا يوم نستلهم غير أدياننا نحن . ادياننا شعلة ان انطفأت انطفأ معها الجذر والفرع من حياتنا المتميزة عن حيوات غيرنا من الامم . . » يمضى تحليل صفوة الفقهاء والكتاب والسياسين في هذه الطريق ينذر الروح الافريقية ويشير لمفهوم جديد اسماه « الشخصية الثقافية » للقارة ، وللانسان الافريقى ، ثم يأمل « الاتحول العقائد الروحية العدة في افريقيا دون ان تلتقى القيم الاصيلة ، تعايش بعضها بعضا في كل اقليم ، وتؤازر بعضها بعضا حيث كان الزنجى » .ثم بينت اللجنة ان المجتمعين في الندوة تشدهم لبعض ثلاث اواصر « اولا : عقيدة لا تتردد في ان هناك قوة ما في الاعالى فوق كل قوة ، ثانيا : ايمان هذه الصفوة المجتمعة بالوحدة العضوية بين الحياة الروحية والحياة المادية . ثالثا : ما جادل واحد من المجتمعين في الوحدة الرابطة بينهم مها اختلفت وراثات واقاليم المجتمعين »

وأوضحت اللجنة بعد هذا الفضائل الاجتماعية والخلقية التي تصدى لها المجتمعون . قالت :

« ان هذه القيم الاصلية في الخلق الافريقي تعبر عن نفسها عبر دينها ، لكنها تعيش اليوم أزمة لن يستحيل على انسان افريقيا المعاصر ان يعدوها ، ذلك لأن جذور الازمة تعود الى ان اديان افريقيا تلتقي في هذه اللحظة من تاريخها هي وتاريخ العالم المعاصر خارج ارضها ، وتلتقي كذلك بالاديان التي دخلت القارة من خارجها . »

ثم تعلن اللجنة عدة وصايا انقلها لك نقلا لتطلع عليها ان لم يتح لك ان تقرأها من قبل : —

١ — ان علينا نحن الافريقيين ان نعلم أكثر عن ثقافاتنا المحلية وهي ثقافات ما بعدت يوما عن دينها أي بعد .

٢ — في ثقافات اسلافنا سمات لم تعد تصلح للعيش اليوم ؛ فيها عناصر ينبغي ان نبقي عليها وان نصقلها صقلا يعيد لها النضارة الاولى ، وعلينا ان نميز بين العنصرين تميزا يقوم على الدرس والبحث الدقيق . ليبق معنا الحقيق بالبقاء وليمض ما ليس حقيقا به .

٣ — ان نعمل على اللقاء والحوار بين الاديان الذائعة في القارة وفي العالم الزنجي كله لنؤكد تأكيدا ان هذه العقائد تلتقي في أكثر من نقطة ، لاصدام بينها . في كل دين عنصر أو آخر يلتقي بأخيه ، وعلينا ان نتبين موطن اللقـــاء وان نقف عند مواطن الخلاف لنوفق بينها ولن يستحيل ان نفعل . كل دين يثري غيره من الاديان ان عمل المؤمنون في حكمة وذكـــاء .

هذا بعض ما خلصت اليه اللجنة ، واتجهت من بعد لغايتها تقول ان ان القوى الروحية ، أية قوى في القارة « عليها ان تثري الروح الدينية في افريقيا . ثانيا ، على القادة في كل حقل من حقول النشاط الافريقي ، ان

يضعوا الدين أى دين ، معتقدات افريقية، نصرانية ، أو اسلاما ، مكانه فى الثقافة الافريقية ، اذ لادين بلا ثقافة ولاثقافة تستأهل اسمها ان هى عزلت نفسها عن دين اهلها . ثالثا ، على قادة الاديان ، قسسا وشيوخا وكهنة أن يتبينوا هم انفسهم مكان الثقافة فى حياة الانسان الافريقى ،انها منبع كل مسلك واتجاه ، ولن يستطيعوالتبشير بأديانهم التى يعتنقون ، ان لم يستعينوا بثقافات تلكم الاديان .

وثيقة ما ابقت على كثير ، تدل دلالة واضحة انها تصدر عن روح بعيدة عن الرياح غير الدينية التى رأىبعض الباحثين أنها تملك من اسباب الغواية ما يفتن الناس عن أديانهم غواية.حملتهم على الظن بأنها ستملك الضمير الافريقى فى هذه اللحظة من تاريخها التى تتطلع فيها للأجود فى الحياة ، تراه ميسورا للناس فى اوربا والولايات الامريكية ، غير ميسور لها . كان هذا فى بال اللجنة حين دعت المجتمعين الى ان يلتزموا بأنهم « لن يدعوا الدين جانبا مهما جاء البديل مكسوا فى رسالات يجزع ان يقاومها احد لأنها تعد انسان القارة بالتقدم واللحاق بالركب البشرى . تعد التقدم والرخاء المادى لقوم يتململون يريدون كل بركات التقدم الآلى . »كانت اللجنة تعى هذا الاغواء وعيا كاملا حين اتخذت موقف الواعظ تقول : « اللهفة على التقدم الآلى يضفى علينا وسائل العيش الرضية ، هذا حسن ، لكن ينبغى الا يرفعه المؤمنون مقام الولاء والصديقين والشهداء لا بديل له . » ثم مشت مع وعظها وارشادها تلح على كل افريقى أن « يمارس التسامح لأنه فضيلة لاتعلوها فضيلة وعليهان يذكر ابدا ان أى دين يستحق اسمه لا يحول دون التقدم . الدين حركة . الالحاد موت ».

قل ان شئت مثاليات مفكرين ، لكنى احب لك ان تقرأها مع الذى يكتبهُ الافريقيون فى الكتب العدة التى تصدر الآن فى بدء السبعينات قائمة على قواعد وضعت منتصف الخمسينات واتخذت سمتا مستويا فى الستينات . وضحت الطريق تقود آخر المطاف لمصادر السلوك الافريقى داخل القارة حين يكونون معامن كل اقليم ، أمر ما وقع من قبل ، وخارج القارة حين يلقون

العالم الاوسع ، أمر ايضاما وقع من قبل ، وأحب ان اسوق لك نموذجاما يكتب الشباب ويقول ، إذن تدرك معى الذى أعنى عن مصادر السلوك الافريقى ومنابع الهامه ، ولترى ان هذه الوصايا التى أحصيت ليست نظرات مجردة ، إن قرئت مع الاحساس الدافق الذى تراه فى الآداب والفنون والسياسة الافريقية :

قال طالب فى اجتماع ضم ممثلين من طلاب افريقيا فى الولايات المتحدة : « سخرت منا الشعوب . عشنا ملهاة كل الشعوب . ألعوبة كل مغامر . احتقرتنا الشعوب ، كبيرها وصغيرها ، وعرفنا كل لون من الوان الأذى والتجريح من هذا العالم المسيحى المتحضر كما يدعى لنفسه . أيها الاصدقاء استعرض تاريخنا القريب فأعجب ! لايفوق الافريقى فى قوة احتماله الهوان والذل إلا الدابة . الافريقى اصبر حيوان . أدرنا الخد الايسر للذين يصفعوننا على الخد الايمن ، لان الكنيسة قالت لنا العفو أولى . لكن ذاك لم يجد نفعا . إن الذين علمونا الحكمة والكلمة ما قدروا انصياعنا للحكمة . ثم احطنا حياتنا بالغناء والرقص نغرق الاحزان فيها ، وضحكنا للمعذبين ايانا علهم يسمعون صوتنا فما تحركت فيهم عاطفة . لا بل تحركت عاطفة . الصقوا بنا تهمة الحمق والغباء ، وقالوا عبيد ، ما فى قلوبهم حس الانسان ، لاقيم يسيرون وفقها ولااسلوب عيش . انصاف دواب . واعيد النظر فى تاريخنا مرة ثانية فأرى مراكب الاوربيين تحمل ملايين من اهلنا لاسواق الرقيق ، تباركها اعلى السلطات الدينية فى العالم المسيحى . أرباح بيعـــها هى التى بنت الكنائس والقلاع والمدن . »

كلمات لاهبة تعمدت ان اختارها من الكثير الذى الذى كتب وقيل فى العشرين عاما الماضية. لو شئت لسقت لك نماذج مما يقول الكبار ، لكنى أرى فى اكثر ما كان يقوله الكبار آنذاك حذرا تقتضيه كياسة الضعيف ازاء القوى . يحجم الاكثرون عن مثل هذا القول العارى ، ولكن يقدم الشباب ، لانوازع أو مخاوف ، وهى فى الوقت عينه كلمات يقولها الكبار حين يخلون لانفسهم ولايقولونه على المنابر خشية ان ينصرف عنهم الناس .

(٣)

أن تقويم ما كتب الكاتبون فى العشرين عاما الماضية هو الطريق لمنابع الفكر الافريقى المعاصر ، وعاطفته نحو العالم خارج القارة . هذه الكتابات هى جوهر الروح الافريقية ، على ضوئها تسير اعمال من يعملون ، وهى اذن الطريق للاجابة على السؤال الذى شغل به الباحثون الاوربيون ،أعنى اية جهة ستسير روح افريقيا ؟ أبين الشواهد على هذا انك حين تأتى على الثمانمئة صفحة التى صدرت عن مؤتمر روما والمؤتمر الذى تلاه فى باريس ثلاثة اعوام بعد ، ترى ان الذين خفو للمؤتمر كانت تحدوهم رغبة واحدة هى أن يستعيد الانسان الاسود « هيبته » كأنسان مع الناس ، وكان ممن جاء للندوة قادة الفكر كما قلت ، قادة العمل السياسى من بعد ، فالفكر والعمل ما انفصما فى فترة الاعداد بعد الخمسينيات . الانفصام ترف يستطيعه الذين ملكوا مصائرهم واصابوا قدرا من الازدهار يتطلعون لاكثر . تحس ان الذين اتوا المؤتمر بدء الخمسينيات كانوا يعملون ويفـــكرون لاولويات ماتقتضيه الحياة المعاصرة . الديانات نفسها ان وقفت طريق تحقيق « الهيبة » تتجاذب المعتنقيها يمين يسار عليها السلام . كان نصب عين كل مفكر أتى الندوة ، مسلما كان أو مسيحيا أو عابد آلهة افريقية ، الايتصدع الصف الافريقى ازاء صف أوربا. صف السود ضد البيض . أقروا فى ندوتهم هذه الايصرفهم عن ذلك الصراع من اجل «هيبة» الانسان الاسود شئ. لقد قال البيض فى صلواتهم وكتبهم عبر السنين ان السيادة للقانون ، لالشعب أو قبيلة ، وعلى الاسود ان يحمل الأبيض على تطبيق ما قال . لقد طال وقوفه على المائدة البشرية خادما ، كما عبر سنقور وجاء وقت ان يجلس عليها كفاءا للرجل الابيض ، ندا له . لن تجد فى القرارت والنظرات التى صدرت عن المؤتمر عبادة لغير الله ، لامكان للشيوعية

الافريقية ، الآلة ، أو أية واحدة من هذه الرياح التى رأى الاوربيون تهب على القارة . ما ازورت الندوة عن الدين السماوى إلاحين قالت عليه هو ايضا السلام ، ان استحال عنصر تفرقة فى الصراع الذى يعيشه الافريقى منذ وطئت الارض أقدام الغزاة البيض ، ذاك لأن الافريقى لم يتقبل الغازين الا مقهورا فى الحرب أو مخدوعا فى الكوخ .

لن يقوم اذن مقام الدين شىء الا اذا حلت بعالمنا هذه كله نكبة يكفر بعدها الانسان بكل قيمة ابتدع عقل البشر .

وما فى ذلك بدع . عرف الافريقى ربا عبر القرون ، كما عرفته اية نفس بشرية أى مكان . وقد ابدع شنوا اشيبى اشهر من كتب الرواية الافريقية فى وصف الاله عند اكونا بطل قصته ، « وتداعت الاشياء » . يرى اكونا الاله كيانا مبدعا متماسكا لاتعقيد فيه ، ويستمع القس بروان الذى عبر البحار ليرشده سبيل الهدى ، ويذهل عن ذات نفسه ، فما عنده جديد يقوله لاكونا ساكن الغاب ، صاحب الشاة والبقر . ييأس من ان ينصّره ، آراؤه فى الكون لاتختلف فى كثير عن الذى جاء يبشر به لينقذ روح اكونا واهله كما زعم. للرب الذى يدعو له مكان فى كل قلب ، وان لم يكنه بعين سماته وصفاته التى عرف فى الكتاب . له اسم فى الالف لغة التى يتحدث بها الافريقيون ، الله ، الرب الاله ، اسماؤنا هذه اكثرها لها مقابل فى هذه اللغات (الورمنو) عند اليوريا فى نيجيريا ، (نقاى) عند الكيكيو فى كينيا (لقبا) عند اهل داهومى ، (اورما نكوما) عند الاكان فى غانا ، (منقو) عند من يتحدثون السواحلية ، (واق) عند الصومال والقالا ، (اكزيير) عند الاثيوبيين المحدثين والقدامى و (نوز) عند النوبيين ، كلمة لا صلة لها بالنور تنطق على خلاف .

يحدثنا المؤرخ الزنجى ، هانسبرى ، انه عثر فيما عثر وهو يدرس الدين القديم للقارة ، عن كتاب نشر عن بنين فى نيجيريا عام١٦٦٨يقول فيه كاتبه الهولندى عن اهل ذلك الاقليم فى ذلك الوقت : « انهم مهذبون يعيشون فى

وئام معا وامان . تحكمهم قوانين عادله من تراثهم ، ويعرفون ان هناك ربا أبدع السموات والارض ، ويقولون ان كلمته هى العليا » . أكثر من هذا ، يذهب بعض الافريقيين المحدثين الى ان اسلافهم هم الذين اكتشفوا الرب للانسانية . يقولون ان الدين من نتاج عقل اثيوبيا بالمعنى القديم للكلمة ، يمتد اقليمه من جنوب اسوان لكل ارض يعيشها السود جوف القارة . ترحل الدين من اثيوبيا صوب الشمال لمصر ونشرته مصر بدورها على العالم كله يوم كانت قلب الحضارة الأول ملهمة الانســـان مالم يعلم . الله ، الاله ، الرب — سمه ماشئت . ذاك الكيان خطر على وجدان أفريقيـــا قبل أى خاطر . ليكن اعتزازا خالصا هذا ، ليكن ادعاء حانقا ، او ليكن شطر حقيقه. لا يهم . الذى يعنيني هو ان الضمير الافريقى مثله فى هذا مثل كل ضمير على الارض، روما ، اثينا ، فينيقيا ، عرف صانعا للكون حين كان الانسان طفلا ، ما اتته رسالات محمد والمسيح .

قبل الافريقيون المحدثون تعاليم محمد والمسيح لأنهم لم يروا فى الذى سمعوه من اهل الديانتين جديدا جديرا بخلاف . رأوا ان هناك صلة واثقة بين الذى فى خاطرهم وبين الذى يسمعون . هؤلاء يتحدثون بلسان يبين ، يعرف الكلمة وهم لايجدون الكلمات كل حين . لم يكن ليتقبل الناقوس والمئذنة باليسر الذى نعرفه لولا ايمانه ايمانا بأن « الشتلة أم النخلة » كما يقول مثل افريقى . أتى الدعاة بالنخلة ، فما رأوا غريبا . كانت عندهم الشتلة . يقول هيرسكوفتش ، واحد من اقدر علماء وصف الانسان على الحكم العميم عن الـــــقـــارة :

« حين تبعد عن الديانات الافريقية مجرداتها الكثيرة وزخارفها المتباينة ، تجد بين الذى يتبقى لك بعد الصقل ديناميه وبين الاسلام والمسيحية ، نقط لقاء عـــــدة . »

ويمضى بفضل ماانتهى اليه بعد دراسات شملت القارة اجمع ، فيقول ان الديانتين الكبيرتين تلتقيان مع الديانات الافريقية فى اصول أربعة : الاله

الاكبر سيد الكون حارسه ، قوى الاسلاف ممن سبقوا الناس بايمان ، القدر ، والمعجزة . ما رأى الافريقى فى الديانتين شيئا ما كان فى وجدانه ، فتلقى الديانتين قبولا ، ما غير كثيرا من رؤيته للحياه والاحياء . دافع آخر اغرى الاهلين بالاسلام حين جاءهم اول الامـــر وبالنصرانيه من بعد . رأى الافريقيون الاوائل ان اعتناقهم الاســـلام لاتضار به عقائدهم الاولى ، لا يغير كثيرا مما يؤمنون به ، وهو بعد هذا يضفى عليهم غير قليل من خبرات هذه الارض هنا ، فقد كان المسلمون يملكون ما يعطون . كل مكان ينبت العز طيب . اتوا القارة بعد ان نضجت حضارتهم ، تفعل ، تحذق الاشياء ، ومهرت شئون الادارة والحكومة . ثم ذوت معارفهم وقدراتهم ازاء اوربا ، فعجزوا فى السباق . اتت المسيحية من اوربا تحمل معها ما لا يستطيع المسلمون وكان طبيعيا ان يهرع الافريقيون الى رسل اوربا الصناعية تزيد فى رخاء العيش ، ورخاء العيش اغراء .

يوهمك هذا المنطق أن الديانتين انتشرتا وذاعتا فى القارة . بين الحقيقة الماثلة امامنا والمنطق الذى رأيته فجوة . بقى على الديانات الافريقية اكثر من نصف السود فى القارة . ما استهواهم الاسلام ولا وجدت المسيحية طرقا لنفوسهم . لو قرأت معى بعض الارقام الميسورة اذن لرأيت أنى لم اسرف حين زعمت لك ان بين المنطق القادر والواقع القائم فجوة . سترى ان ربع أ خمس سكان الاقليم هم الذين اخذوا المسيحية عن اوربا والاســـلام عن المسلمين . آخر احصائيه للديانات فى افريقيا تيسر لى ان اراها وانا اعد بحثى هذا هى التى صدرت عام ١٩٥٤ . سجلت هذه الاحصائية ٢٢٩ر٤٥٦ر٧٥ نفسا لاتدين بواحدة من الديانتين ، وكانت افريقيـــا السوداء على ذلك العهد ٠٥٢ر٦١٤ر١٣٩ نسمة . بعبارة اخرى ، ظل على دين الآباء نحو ٣ر٥٥٪ من سكان افريقيا الاستوائية . ما حور الاســـلام لمبادئه اكثر من ٢ر٢٢٪ من السكان والمسيحية ما حورت لمبادئها اكثر من ٤ر٢٢ ٪ .

وهنا احـــب لنا ان نقف قليلا ننظر الصليبية الحديثة فى افريقيا فى

حدقات عيونها . انهاتتعمد عمدا ان تثير الرعب فى الشطر الساذج فى العالم المسيحى ، تلقى فى روعه ان الاسلام يستشرى فى القارة ،وعلى القادرين من النصارى والحال هذه ان يعينوا الكنيسة لتقاوم هذا الموج العارم، ولو كان من عزمى ان اقف طويلا هنا لأعدت لذهنك بعض الذى قال به الداعية بلى قراهام بعد زيارته القارة قبل اعوام . اتاها بآلات تصويره ومخرجيه، تصحبه المصابيح الكهربائية مسلطة عليه ، كما لو كان ممثـلا فى هوليود . يقول الداعية ، تردد قوله اذاعات صوت الانجيل فى اديس ابابا ومنروفيا ، ان الاسلام يكسب ارضا كل يوم، وهو يعرف انه لايفعل . يعرف اكثر مما تقول به الارقام ، ويردد المسلمون قولته ، لانهم يحبون انيسمعوه ، عالقة عيونهم فى النجوم اعجازهم على الارض ، يتمتمون « انا له لحافظون » اغناهم الله عن السعي . صديقون ، بعضهم مجاذيب دراويش . كسالى الاكثرون . تغنيهم كلمات هذه الآية وشبيهاتها عن الكدح والعرق والبذل. صورهم عبد الصبور حين جعل صوفيه مكتفيا بخرقته . انها « وقاية » من العمل . مزقها وذراها فى الرياح واحد من عامة الناس ذوى الحس :

أمـا أبصرت بعض السـالكين تنعموا بالثوب ،
وحين استشـرفوا بـالزهو وانحـلوا عن اللذة ،
تشهـوا لـذة مـن أخبث اللـذات
تشهوا لـذة الانـكار للآلام والبـشر
وان يمشـوا خـفاف الخطو مطويين فـوق النفس
وحـين تحـدثـوا اسـتخفـوا وراء الخرقة .

بلى قراهم واشياعه يريدون ليستنيم المسلمون الى قولتهم القديمة : الاسلام دين الفطرة ،والى الصدام بين الديانتين كانت تنتفخ اوداج محترفى الدين وهم يتسقطون اخبار الفتنة بين شمال السودان وجنوبه ، يتلمظون يريدون للفتنة ان تظل معنا ، غذاء لهم وعملا لا يفيد . والحق الواقع ان الاسلام لا ينتشر على النحو الذى تذيعه اصوات الانجيل وضيقوا الافق من المبشرين اتخذ

بعضهم من الدين صناعة .

كان في العالم اكثر من ٤٣٫٢٥٠ مبشرا سنة ١٩٥٤ ينتمون للمذهب البروتستانى ، يعمل فى افريقيا وحدها ١٥٫٩٧٠ ، اعنى قرابة ٣٥ ٪ منهم . وصرفت الهيئات البروتستانية الامريكية وحدها نحو مائة وسبعين مليون دولارا على بعثاتها فى افريقيا ، وان كان الماضى دليلا هاديا على المستقبل ، ربما نفعنا فى هذا الشطر من بحثنا أن نعرف ان اعتمادات الصرف على الهيئات التبشيرية فى القارة الافريقية تزيد بمعدل ٨ ٪ فى العام ذلك لأنها زادت ٣٢ ٪ بين عامى ١٩٥٨ — ١٩٦٢ ، ولن امضى مع هذه الارقام المبينة على كثرة ما ارى فى مفكرتى القديمة التى انقل عنها الذى أكتب الآن . انا اردت نماذج مشيرة ، لا الواقع كله ، ذاك لأن الواقع كله يشير الى ان افريقيا الآن محور العمل التبشيرى لا لوجه الله محضا خالصا ، لوجه الفتنة بين اشطار القارة جميعا . واشطار الاقاليم المفردة فى القارة كما كانوا يفعلون فى السودان ، يدفعون القائمين على امره لاجراءات ما كانت لتكون لولا افاعيل بعضهم من المحترفين . حمق دعا لحمق .

أعود لأدلل على الذى ادعيت بان افريقيا محور العمل التبشيرى ، على ارض صليبية جديدة ، تقبع مراكزه فى اركان من مجتمع الولايات المتحدة تقودها شيعة قراهام ، واوربا يمارس منها العمل التبشيرى قرابة اربعمائه هيئة ، على ان الموسوعات المبذولة كل مكان تقول لنا ان الذين يعملون فى البعثات الدبلوماسية الامريكية فى القارة لايعدون ٧٠٠ مواطنا امريكيا ، واحب ان نقابل هذا بعدد المبشرين من مواطنى الولايات المتحدة . كتب صحفى امريكى مرة يعلق على كثرة اعدادهم يقول ان حكومة روديسيا الجنوبية اضطرت لتأمر القائمين على شئون البعثات التبشيرية أن تقيم كنائسها على مسافات بينها تحددها الادارة ، ذاك لأنها من فرط مابينها من خلاف ملأت الاقليم ، كنائس بعضها لايبعد من بعض اكثر من خمسة اميال . يكاد الواحد لايصدق هذا ، لكنى انقله لأنه وان كان مسرفا يشير لبعض الحق ، ولأنه يقرب لذهنى

المقابلة بين هذه المنظمات التى تعمل فى القارة منذ مئتى عام ومنظمات الاحمدية التى ما دخلت الميدان غير عام ١٩١٦ وتعمل فى همة على قلة ما تلقى من يد وعون .

وجانب آخر لاينتمى كثيرا لما نحن بصدده عن الدين فى الاطارين الثقافى والاجتماعى ، ولكنه يعيننا على فهم لحقيقة الصليبية الحديثة التى اشير اليها . سأذكر هذا الجانب على عجل فى كلمات : لو رأيت نماذج المبعوثين رؤيتى لهم لجزعت على عقل الانسان الافريقى . رأيت نماذج من هؤلاء المبشرين وانا اجادلهم فى شئون تتصل بعملهم فى جنوب السودان . تجحظ عيونهم ان جادلت فى امره . يعدون كل حوار نزاعا . عنفهم الفكرى يبيح لهم الايمان بالوثائق ، تجهد لتدلل لهم على بهتانها وزورها ، ولكنهم لا يتحدثون اليك ليصلوا الحقيقة ، يتحدثون ليكسبو نقطة . الحديث مبارزة ، واشهد انى ليلة من ليالى الحوار هذه خفت ان يعتدى على احدهم . اهتاج حين قلت كلمة بريئة لا ادفع بها عن اثم كان منا ، اوضح بها حقائق الاشياء لن يجدها الباحث فى منشورات سرية يوزعها الشذاذ فى الليل . ما كان اكثر من هذا . لكنه كان يملك كثيرا من هذه المنشورات وكانت احكامه كلها تقوم عليها . خرجت من الكنيسة لا يودعنى لدى الباب أحد ، وانا الذى قضيت ساعة أو تزيد وحدى بينهم .

سترى حين يتقدم بنا الحديث ان البطء المعاصر فى انتشار الاسلام غير جديد على القارة ؛ انه امتداد لبطء صحبه مذ أتى القارة . لم تدخل الديانتان الكبيرتان النفس الافريقية بالسرعة التى يقول بها بعض الباحثين . عشرة قرون الآن والاسلام يلتقط طريقه بالتجارة واللقاء المسالم أحيانا والحرب بعض الأحايين . قرنان أو اكثر منذ جاءت المسيحية القارة ، ولكن قرابة سبعين مليون من الناس ما زالوا على دين آبائهم من قبل تتصارع العناصر الستة التى اشرت اليها على ارواحها . لهذه الظاهرة صلة بتاريخ الديانتين وثيقة . جاءت المسيحية حول عنقها طوق عجزت عن الخلاص منه : ارتباطها بالرجل

الابيض وعبثه الاسطورى الذى جاء يحمله معه ، وما بعدت الكنيسة عن الادارة والحكم فى اية فترة من فترات عملها فى القارة ، وذهب بعض رجال الكنيسة بعيدا فى ارتباطهم بالادارة البيضاء على نسق ما كان ممكنا للافريقى معه ان يرى الحدود بين رجل الدين ورجل الحكم . كانت الادارة البريطانية فى السودان مثلا تلى شئون التعليم فى الشمال العربى المسلم ، ولا تشترك الا بالمال فى شئون التعليم فى الجنوب الافريقى . بقى الكثيرون من اهله على اديانهم القديمة . اما الاسلام فقد اتى القارة على يد تجار . العمل للدين عرض يقومون به . عاطفة عارضة لايتفرغون لها كما يتفرغ المبشرون . وفى القرنين الاخيرين التقت الديانتان على ارض افريقيا . وكان لقاء رجال كلهم نتاج تاريخ من الصراع كانت قمته الحروب الصليبية . جاء المبشرون افريقيا يحملون الصورة التى تركتها فى وجدانهم تلك الحروب وما كتب الكاتبون عنها عندهم واذاع الذين مارأوا فى تلك الحروب غير الدافع الدينى ، وما كان فى الحق غير ستار لصراع القوى فى اوربا ، اقحم الدين فيه . رأى المبشرون فى المسلمين شذاذ آفاق أتوا القارة للربح الذى لا يعرف الرحمة والشهوة التى لاتعرف الحدود : طرد الاوربيون تجار العرب من شرق افريقيا فى القرن الخامس عشر ، وكانت البرتغال على ذلك العهد رائدة الطريق للقارة ، وعاد العرب من الساحل بعد زمان اعدوا فيه انفسهم لكرة اخرى ونزال جديد ، لكن اوربا الغربية كانت قد وصلت القارة بعدتها وقدراتها الجديدة من فنون وعلوم وصناعة فى اخريات القرن الماضى . دعنا نقض بعض وقت مع الصورة الاوربية عن الاسلام فى ذلك العهد ومع التجارة العربية فى افريقيا . لنفصل قليلا هذا الذى اوجزناه ، ذاك لأن صورة الاسلام والتجارة العربية تلقيان ضوءا على انتشار الديانتين فى القارة كلها ، وعلى العلائق القائمة على ايامنا هذه بين الديانتين فى افريقيا ، بين المعتنقيها من الناس .

فى البدء دعنا نذكر ان الديانات الافريقية ملتصقة بهذه الارض ، لا تهوم فى ضباب ، ومرتبطة فى الوقت عينه بالسماء على نحو لا فاصل فيه بين

هذه الدنيا وتلك الآخرة . اعانت السذاجة التي تتسم بها المجتمعات الاولية على وضوح في الذهن الافريقي لا تجده في المجتمعات تتداخل فيها الفكر والاعمال ، تتعقد . من هنا كانت حيرة الافريقي حيال الاوربي . يحدثه في الكنيسة يقول له الناس اخوة في المسيح ، اكفاء ، ويعامله حين يخرج من صلاته كما لو كانت له الكلمة الاولى والاخيرة في كل شأن يتصل بالحياة . شق عليه ان يكون الرجل الابيض في الديوان غيره في الكنيسة .كان هذا عنده « خداعاً مسرفا . سرقة . سخرية » كما قال الاب شارلز دمنقو عام ١٩١٩ . كلماته تصف في غير مداورة ما يستطيع الانسان ان يعمل باخيه ان هو ملك عليه امره . قال : « كل الذي اشهد في نياسا لاند شاهد صادق على ان الرجل الابيض اخفق . كل البيض نموذج واحد . المبشرون ، الاداريون ، اهل الصناعة والزراعة والمال كلهم شركاء . شركاء ثلاثة يدفعهم وازع واحد وتتحكم في اعمالهم قوانين واحدة . الاهلون هنا ضدهم . أسوأ . انهم يسخرون منهم . ليتنا نملك قوة نسمع بها اوربا هذا الذي نراه ونعتقده. ان ملكنا اداة الاسماع لصرخنا في وجوههم : قولوها الاوربية . أوضحوا عن ذواتكم فاننا نرى خلال الغطاء السميك الذي تلتحفون به حياة الشركاء الثلاثة ، مسرفة في الخداع تبالغ في النفاق ، وتسرق لا تستحي . لا تقول : أعط ، تقول : هات ! » « الاوربية » لا « المسيحية » .

كلمات صدرت عن قس في اعقاب ثورة شارك فيها اهله ، ما استطاعت ان تحقق رؤاها ، اتت قبل ابانها ، وهي نظرة عميقة لموقف كثير التعاريج . تقوم بين كلمات الرجل الابيض واعماله فجوة اعمق من تلكم الفجوة المألوفة بين اقوال وافعال اكثر الناس ، كل مكان .

لدمنقو مكان في يقظة الانسان الافريقي ، فحديثه هذا انقلاب بعد جيل واحـــد حنقا وحـــقدا على لسان حوارييه بعده . قال كان قمبا : « اننا قوم متدينون . على راسنا وعيننا المثل المسيحية والقيم ، لكننا نؤمن ايضا بالحقيقة الماثلة امامنا ايمانا عنيدا لاننا لا نرتاب فيه . نريد لنرى الاخوة المسيحية حقيقة

قائمة . ينبغي أن تكون الديمقراطية التي تتغنى بها أوربا ، لنا ايضاً فنحن بشر ومؤمنون ؛ ليس من الديمقراطية في شيء أو المسيحية في شيء أن يتحكم أي غرأبيض في مصائر شباب منا يحمل بعضهم بكالوريوس آداب ، مثلا » ويمضي قامبا في حنقه الاسود يصدر من تلــكم النظرة الافريقية الشاملة ؛ تحوى الحياةمن اقطارها كلها ، التقدم المادى بضع من التقدم الروحي أو هما وجهى عملة واحدة « حين يقول لى القس ان الله معى اريد أن أرى برهان ذلك في بعض فرص يصيبها الرجل الأسود ، لامن لعنات يصبها على رأسه الرجل الابيض . »

وعلى ايامنا هذه التقط القفاز من دومنقو كتاب وشعراء صوروا حال الرجل الاسود صوراً تعسه . دخل دونس اوساديبى الشاعر النيجيرى قلب العامل والفاعل في بلاده فكتب بلغتهم الانجليزية المتعثرة المعبرة ، شعراً يصعب نقله للعربية . دعنى أحاول التعريب بعربية تتعثر ،لعلى انجح في أن أنقل لك الصورة قريباً مما رسم .

مرات مرات أفكر في الدنيا دى
أشوف الشقا الفيه الناس
الاسود مسكين ، نصيبه
الجوع والشقا والنبيح
كان دار ليه لقمة وحيدة
يعنى حاجة بسيطة ، اى حاجة
لازم يركع ينخ
لاحول ولا قوة
يركع ، ياناس . يطاطى . . . ولا . . .

لايسعك وانت تقرأ كتب الشعراء والأدباء السود في العقدين الأخيرين ، الا ان تلحظ الروح الساخرة التي يعبرون بها عن سعيهم لاسترداد « الهيبة » التي ضاعت مع النفوذ الأوربى . صاحب رواية « الخدام » مثــلا يصف

العنت الذى لقوه فى بيوت الله . فى سخرية صفيت تصفية من أية عاطفة مرة تظلل االصورة التى يريد أن يتركها مع قارئه عن التمييز بين المؤمنين داخل الكنيسة الواحدة : للبيض فى كنيسة القديس بطرس فى دانقان ، قرية من قرى الكمر ون ، مقاعد قرب المنبر يتابعون منها الواعظ من على مقاعد خيزران مغطاة بوسائد ملفوفة فى قطيفه ، ويجلس الرجال والنساء معاً . الافريقيون يجلسون فى الشطر الخلفى كل على « ضقل » لامقعد ، النساء وحدهن ، والرجال على بعد ، وجنب كل صف أفريقى يقف واحد من أهل الدين يحمل عصاة يلمس بها كتف الافريقى إن زاغت عينه عن المنبر أو « دقس » ويتمشى بين الصفين فى الممر الذى يفصل الرجال عن النساء ، عصاته على كتفه . ألفوات صلاة !

تجـــربة مماثلة ولاريب ، هى التى ســـاقت الرئس كاوندا ليقول فى حســـرة عن عزوف اهـــله عن الكنيسة ، والرئيس واحـــد من اشـــد الناس تقوى وأكثرهم استقامة « لقد ربيت فى بيت دين . عقيدتى هى المسيحية ، تعاليمها فى كيانى منذ كنت . مازلت أركع لله ، أطلبه الهداية ، حين تختلط على السبل ، أحار أيها اختار . لكنى ادخل الكنائس عندنا فى روديسيا فاجزع . أخاف على ايمانى ان يهن . اسائل نفسى حين أخرج ، أذاك صوتك الذى سمعت فى الكنيسة يارب ! »

لا أحب ان انهى هذا الشطر من حديثى بهذه الكلمات الآسية عن المنظر المسيحى فى القارة لأنه ليس حزننا كله ، وليس سخرية عابثة . لو سمع شارلز دومنقو مايقوله الرئيس كاوندا لضمه اليه ورعاه فهو شيء من الذى عاناه هو نفسه قبل جيل ، لكنى اشك فى ان الاب الثائر على تشويه كلمة الرب ، كان سيفهم عن ستولى الاب الذى يقضى شبابه الحلو وروحه الشفافة فى معتقلات ايان سمث يقود مع غريمه إنكوما صراعا لا يعرف احد الى اين ينتهى باطرافه. يقص ستولى قصة تعيد الى الذهن اقاصيص كليلة ودمنة :

التقى رجلان من جنوب افريقيا وطفقا يبحثان فى شئون بلادهم ،

كما هى عادة كل اثنين يلتقيان هناك . قال احدهم « اتى المبشرون هنا وقالوا لنا : تعالوا نتجه للسماء صوب الله : فاغمضنا عيوننا نتمم صلواتنا نستجيب للذى دعينا اليه . ثم فتحنا عيوننا ، فماذا وجدنا ؟ وجدنا الكتاب المقدس فى يدنا والارض في يدهم . » وعلق الآخر يقول « حين اتى الاوربيون يغتصبون ارضنا ، ماكنا نملك غير الرماح نذود بها عنها ، فكانت لهم الغلبة . سلاحهم كان افعل . اقتعدوا ارضنا . اضحت لهم واضحينا نحن انفسنا متاعاً خالصاً لهم كأرضنا ، ودوابنا . لكن اسمع يا أخ. جاء المبشرون فى الوقت المناسب ووضعوا مفجرات مهلكات تحت مقاعد الاستعمار . أن الكتاب المقدس يعمل الآن ما لم تكن نستطع عمله نحن وحدنا دونه . »

عبر الافريقى عن ضيقه بالكنيسة بطرائق شتى ولكنه ظل محتفظا بعقيدته فى الأديان السماوية التى أتته من الخارج . قال قائلهم فى كلمات بينات يخاطب البيض من غزاته ومرسلى غزاته : «اسعوا مابدالكم السعى فى ابقائنا خارج الكنيسة وسنسعى نحن ماوسعنا السعى لندخل ، وسنربح نحن هذه الحرب، لكن أسمعوا : لن تجدونا هنالك حين تنتهى الحرب . لن تكونوا معنا .» وما ابعد. شرع الاسود حربه. يخشى الواحد ان ينتقل البحث عن الحقيقة من يد علماء مجاهدين للحق والخير وسياسيين اشباه ستولى ومنديلا، ليد علماء فى ذهن لاروا جونز ، خلقهم قطعة منه ، محاربون معتدون ، كلهم حامض المذاق، ذكى خارق الذكاء، على صورة خالقه . ويكفينى كى اوضح ماريد ان اعرب لك مقطعا واحدا من قصيدته « العالم » فهو لايكتب شعرا تتماسك كلماته تتكسر فرط الحنق . انها تتدفق واحدة اثر اخرى، ربما واحدة مع أخرى ، تلتهب كلها معا ، تأكل معانيها فلا ترى المعانى خلال النار يوقدها حارقة ، وتحس النار ، تراها لاهبة :

قاب يتسلل جلدى يرفعه
يجلد أقدامى يسأل
كم أملك من حيوية ،

عقل خال يرفع
يدفع
كان عجوزا مات يسير
في ارضه ، ارضى أنا
بلادى انا وبلاد عجوزى المات
اخرجوا عن طريقى انا سائر
ايها الحمقى اخرجوا
تاريخكم هذا الذى اقرأ لا يغنى
انا جئتكم بتاريخى انا
وارجو ان يكون واضحا تماما
ما أقول :
أخرجوا .

نعود للاسلام ، ماالذى اعجزه وهو الذى أتى القارة قرونا عديده قبل المسيحية ، وكان فى وسعه ان يؤلف القلوب الافريقية بجانبه ، عوائده ؛ وهو دين الفطرة فيما يقولون ، والقربى بينه وبين النفس الافريقية قريبة فيما يقول هرسكوفتش . كان الاسلام فى الميدان وحده لاينازعه دين اكثر من خمسة قرون بين القرنين العاشر والخامس عشر ، والمسلمون هم الذين كانوا السبيل الادق لمعارف أوربا عن القارة المظلمة كما اسموها ولا يعتب الانسان عليهم العبارة فقد كان الذى يعرفونه عن القارة مخلوطا حتى عند الكبار قادة الرأى .

كتب عنها فيمن كتب مثلا شسترفيلد فى رسائله لأبنه فى القرن الثامن عشر وغير بعيد ان تكون آراؤه رافدا من روافد التفكير الاوربى عن القارة ، فقد كان الرجل ، فيما يقول كاتبو سيرته « تجسيدا » لكل الذى يشتهى احدنا أن يكون : سياسيا قوى العبارة ، أديبا ذا فطنة يهابه الكاتبون لسلاطة كانت فى لسانه تلذع ، مزيجا نادرا من رجل الدنيا المقتدر . قال هذا المزيج الذى سجل

الناس كل رسالة ارسل بها لأبنه ان « افريقيا كما تعرف تنقسم اقاليم، هى مصر ، والمغرب ، وزاريا ، ونقرتينا (؟) وقينى ، والنوبة ، واثيوبيا » ويمضى يمسخ الصورة فى ذهن فريسته الاولى ، أريد ابنه ، وفرائسه الأخرى ، أريد قراء على ذلك الزمان ، وكانوا كثرا فما كان بالكاتب الذى يمكن لك ان تغفل ما يكتب . « الافريقيون أجهل اهل هذه الارض واغلــظ من يعيش عليها ، أحسن قليـــلا من الاسود والفهود والنمور ومامن هذه الحيوانات بسبيل ، وهى قارة تعج بهذه الحيوانات . »

لكن اوربا كانت اسعد من أن يضلها شسرفيلد هذا الضلال . كان قبن المؤرخ المبين قد فرغ على تلكم الايام من قراءة الشريف الادريسى فى ترجمته اللاتينية وكتب يقول انه عرف القدر اليسير الذى عرف عن القارة على اساتذة عرب « ان الجغرافية الداخـــلية للقارة الافريقية ، وهى أرض ذات طول وعرض ، منظر خفى لاسبيل الى التعرف عليه . أقدر من استطاع اختراق غابه وصحاريه العرب والبربر . ماعرف غيرهم سبيلا اليها لا فى تاريخنا هذا المعاصر ولا فى القديم البعيد » ما اتخذ قبن مكانه بين الخالدين الا بمثل هذا الذكاء العادل . بعض الذكاء عقيم يلغ فى العقم واليأس . كذلك القليل من العلم العجل . سترى شاهدى حين تذكر ان الحرب بين البرتغاليين والعرب كانت حرب تجارة لاتستحق ، تكتسى بأردية ماينبغى لها . كل يريد ليبيع ويشترى أى شىء ولكن القوى الاوربية الاخرى من الغرب الأبعد ، بريطانيا وفرنسا ، وهولندا مثلا أتت افريقيا تحمل فى ذهنها آراءها عن الأسلام وذويه ، وكانت اشبه بالعواطف القلقة منها بالآراء ، فقد كتب اكثرها تجارهم العابرون والمبشرون من أهل الهوى والغرض . سوقية يتحدث بعضها عن الاخلاق الاسلامية « المبتذلة » وبعضها عن « الفوضوية » التى أنهتها الملكية الفرنسية فى الحروب الصليبية ، وذر قرنها فى القارة تذيع الابتذال والفوضى. إرث ما استطاعت اوربا الخلاص منه. لاحديث لاحوار لاعيش بين الديانتين. حرب الى ان يفنى الاسلام والمعتنقوه . ما افادهم علمهم فى هذا الصدد ولا

أعانهم ذكاؤهم الجديد ، ذاك لان محترفي الدين التقوا بأهل الصناعة في نقطة. كان أولئك في حاجة لمال هؤلاء يمارسون به عملهم التبشيري وكانت اسواق اوربا أضيق من أن تتسع لكل ما تنتج الآلة الحديثة ، يريدون اسواق أخرى لما تصنع آلاتهم المستحدثة . الشراكة التي حدثك عنها دومنقو ، الاب الذي كره الخلط بين الدين والتجارة والادارة والحكومة ، فثار وأهله ، وعجز . كان عجز القادرين على الكمال .

ماكانت هناك سبيل في الذي حسب المرسلون هؤلاء ، واللاهفون على البيع من أهل الصناعة للتعايش بين دين قر في اذهانهم انه يستهوى الناس لأنه دين الاباحة ، ودين ينفع الناس يعطى المناصب والمقامات والسلع . الاسلام لاحول له ولاقوة يداوره أهله ليجبوا تجارة كانت لهم ودينا لايفتن الناس ، لأنه لا يعطى ، عاجز. لايحب واحد ان يكون مكان المسلمين. الناس ادوات في يد القادرين ذوى السلطان ، يمنحون ويمنعون . اولو العزم والكبرياء لعزمهم حد ولكبريائهم حد . أؤلئك المسلمون .

يحفظ قلة من الناس أعتدالهم . طريف أن تقارير أهل الحكم والادارة كان اكثرها بمنأى عن هذا الصراع . ترى في المسلم الفرد عونا له على بناء هيكل للادارة لانه لايرفض المنظمات الافريقية رفضا كاملا ولا يرفض المنظمات الاوربية رفضا كاملا . يوفق بين غايات ازمانه والوسائل القديمة . كان الفرد المسلم في عين هؤلاء رجلا يستند لحضارة يحترمها وان خاصمها ، وكانوا على وشك ان يعملوا معا ، الاوربى الحديث والعربى القديم ، من أجل افريقيا واجلهما ، ولكن شيئين حالا دون ذلك . اولهما تهافت بعض جلافيط الناس من قادة المسلمين على الاوربى ، يدقون اعناقهم ليكونوا في كتب القادرين . اثار هؤلاء احتقار الاخيار من اهل اوربا الذين كانوا على وشك ان يعملوا مع العرب . ثانيهما فئة أخرى مصابرة ، أنفها في السماء تذود عن قيمها . قاتلت قتال المجاهدين الأول : القت الذعر في قلب الأدارة والحكومة ، وكانت النفرة والمنافرة بين اوربا والعرب : الأولى فئة متهالكة لاتستحق عناء، والاخرى

افضة ماكان معـــدى ان تضعفها اوربا ، ليستقيم لها الامر تهزمها هزيمة تدق عنقها .

المسلمون الذين وقفوا وجه التدخل الاوربى ، انفة ومعرفة بالمصالح المادية ، كانوا يعرفون مايريدون . خبروا القارة من قبل وخبروا اوربا . المسلمون الذين ســكتوا عن الغزو الاوربى ، تقيـــه ، حذرا ، حرصا ، ماكانوا عامة رعاع . كانوا حرسة الاســـلام دينا ومنفعة ، كانوا يهتدون بدينهم لا يتخبطون ، فى خاطرهم ان يصبروا يأخذون عن القاهر ادواته حتى يحين حين ، الكل فيه اكفاء ، وكان قليلا اثرهم على الذى كان من أمر العرب والمسلمين فى القارة ازاء الاوربيين من كل ملة وكنيسة . كان للقلة المرابطة اثر اوضح ، ذلك لأن اوربا استنصرت بالافكار الصليبية فنصرتها . تذبح ابناءها فى حروب الفتوح الافريقية من ناحية وتنفق اموال القادرين من ناحية. رأوا فى القارة الافريقية ما رأوه عشية سقوط القسطنطينية « المسلمون برابرة » فيما علمهم الكاردينال بساريون « اكثر البشر عدم حساسية للانسان وقيمه . اكثر الناس عداء للنصرانية . وحوش تفترس. اغلظ الحيوانات حاملة الاثقال. » التقى الجمعان فى افريقيا على النحو الذى التقوا فى اوربا وآسيا على مقت لايرحم . المبشرون يقودون اوربا من انفها طوعا اكثر الاحيان ، منافعها التقت واهداف الكنيسة . تركت « عيسى سبلك رحمة وسلام » جانـــبا ، واتخذت عيسى مركبا لصناعة حديثة وحرفة اسمها الدين .

ابى المسلمون ان يخنعوا ، مابقى لهم غير الدين ينافحون عن تجارتهم عبره . ماعاد لها مكان مع تجارة الاوربيين. حضارتهم ما عاد لها مكان وكذلك نفوذهم. أول الامر كان حتما ان تنهى الامر اوربا ليطمئن قلبها ويستقر سلطـــانها التجارى ، فأتت على الذين ساروا مسارها. صبرت على الذين ابوا ذاك المسار يقاتلون : الحاج عمر فى السنغال والاقليم ذاك كله ورابح فى تشاد ، والمهدى فى السودان كانوا أقوى منة وعددا من الذين الفت قلوبهم اوربا .

جدير بنا ونحن ندرس هذا الصدام بين العرب والاوربيين في القارة أواخر القرن الماضي ان نقف عند اسباب هذا الهجوم على الاسلام مرة تلو اخرى ، لأن معقبات هذا الصدام مازالت معنا تحول دون لقاء صادق بين افريقيا والعرب ، وتحول دون لقاء كل بين المسلمين في افريقيا ، والمسيحيين فيه . يقول استاذ كندى عكف على هذه الظاهرة في حياة أفريقيا :

« رأيت في الذى درست مما عثرت عليه من كتب ورسائل واوراق ، ثلاثة اسباب لهـذا الهجـوم . اولا : كان الاسلام يجتذب قلوب وعقول الافريقيين وهي ظاهرة مكنت العنصرين العربي والافريقي من الامتزاج الحميم دون تحوير كبير في حياة اولاء أو اولئك ، وكان ذا امرا عصيبا على الاوربي ، ذلك لأن التبشير بمعناه الفني تنظيم اوربي يكاد يكون صناعة ، قوانينها لاتحتمل ان تعصى أو تعدل . ثانيا : رأى المبشرين عن القيم الاسلامية العربية والخلق الافريقي . بين الاثنين فيما رأوا قربى وثيقة ، تعين الاسلام عـلى الذيوع وتقف طريق المسيحية . ثالثا : كانت آراء المبشرين تتسم بمرارة لا ترى الهجوم المسلح واللفظ الغليظ سوأة . . . »

ويضيف كيتر على اسبابه هذه ان كثيرين ممن كانوا ينفقون على التبشير شرعوا يقولون انه اخفق وراحوا يدعون غيرهم ان يحفظوا عليهم اموالهم ، ويحاجون المنظمات التبشيرية بمنطقهم هم ، يذهبون به أبعد ، يقولون ان الانسان الافريقي غير أهل للخلق المسيحي والروح النصرانية . قيم يستحيل على الافريقي ان يفقه مراميها : أذكى من عقله . الاسلام اقرب لنفوسهم لأنه غير بعيد من وسائل الافريقي في العيش . مشى المبشرون خوف هذا الاتجاه فشددوا النكير على الاسلام كما سنرى بعد حـين ، وذلـك ليحملوا الرجل العادى في اوربا على البذل رأفة بالفرائس الاسلامية .

بعض هذا هو الذى قرأ العالم كيتز حين تحدث عن مصادر معرفته ، واحب ان اعيد لذهنك ما كتب بعضهم عن علائق المرأة والرجل في الاسلام

وانتخل عمدا في هذه القضية ، فكثيرون صوروها مركز النزاع ومحوره بين البيض والسود ، بعضهم يقول انها القضية لا قضية غيرها . يلح كثير من الدعاة على القول بأن اباحية الاسلام هي التي تصرف الافريقي عن المسيحية ، حتى لقال واحدمن العدول يأخذ عليهم الهوس الذى اصابهم :

« يردد الكاتبون عن المسلمين يقولون انهم لاينجحون في هذا الاقليم الا لأنهم جسديون أهل لذة وشهوة » ، وما اعرف شيئا ابعد عن الحق من هذا . يحسب هؤلاء ان ديانة ما ، اية ديانة تجد مكانها لقلوب الناس لانها تدعو لسوء الخلق ، سؤ السلوك ، التحالل من القيود والحدود . . . . . »

وكان صوت العدول تجرفه الاصوات ذات الطنين كصوت القس ستير ، فقد كان واحدا من الثقاة عند اهله لأنه عاش سنين عددا شرق القارة ولكنه ربى على كتابات اسلافه الاقدمين مثل باسرين الذى مارأى فضيلة في الاسلام وهويكتب عن سقوط القسطنطينية . ذهب ابعد من اساتذته فقد كانوا يكتبون عقب انتصار والانتصار تهدأ النفس معه ، وكان ستير يكتب وغبار المعركة حــوله لايعرف من سينتصر . قال « ان القحبة في شوارع لندن افضل واشرف من السيدات المسلمات . . . . » والزواج عند المسلمين في رأى القس العالم الخبير . « لايرقى لتلك الصلة التي تقوم بين البغي والمشترى جسدها بعض وقت . » تقرأ مذكرات الرجل فتحس انه يصــدر عن غيرة وضيق ، ولكنه ضاق حتى آمن بهوسه الذى كان يضل به اهله ، لأنه لايكتب ، إنه يسب :

« تبيح العقيدة الاسلامية للمسلم ان يتزوج اكثر من واحدة ، وحين يتزوج رجل واحد اكثر من عشرين زوجة ، لأنه ثرى يستطيع ان ينفق عليهن ، لايجد غيره من الناس امرأة يتزوجها . »

مالمولانا ؟ لم يجد امرأة تقبله فطاف في خلده ان النساء « قطت » وضاق كما تفعل انت وانا حين ترفضنا امرأة . ربما . اقرب من هذا الى الحقيقة انه

نظر للحياة بين الرجل والمرأة من ثقب في سجنه الكنسي أو ثقب من الخلق الفكتوري حين انذر نفسه لصناعته ، فحرم عليها ان ترى حضارة غير حضارته وثقافة غير ثقافته . وهكذا المنذرون انفسهم ، يرون الحياة والاحياء من كوة في غرفة ، ضف لهذا أن اوربا كانت على ذلك العهد قلب الدنيا ، زهاها الرخاء والذكاء وازدهتها المنعة ، يشق عليها ان تتواضع تفهم عن غيرها. ماكان للقس واشباهه ان يعرفوا أن المرأة في نظر الافريقي ، اخريات القرن التاسع عشر « كوز ذرة ياكلـــه اللى عنده اسنـــان » كما يقول مثل في القارة سائر . متاع لمن يستطيع . وما جهد هؤلاء ليعرفوا ان اول قوم أتوا الساحل من الجزيرة العربية كانوا ملاحين لايمكن لهم ان يكونوا غير كل ملاح . في كل بلد عنده امرأة . في كل ميناء . وفات على السابين ان التجار الذين اتخذوا الساحل سكنا وارضا ، اتوا قبل الاسلام افرادا مغامرين وتكاثر القادمون على العهد الاسلامي ، وكانت التقاليد قد رست وكذلك الاعراف ، وما كان معدى أن يكتشف الفريقان انهما يلتقيان في النظرة للمرأة ، ذلك لأن العربي قبل الاسلام كان كالافريقي ، يعدها متاعا مباحا ، وتعد هي نفسها جسدا فحسب حتى لزجرها القرآن ، « ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى » وكانت الجاهلية الاولى التي تشير اليها الآية الف سنة ، فيما يقول المفسرون « تمتد بين نوح وادريس »

« وكان يسكن الجبل بطن من ولد آدم وكان الآخر يسكن السهل ، وكان في نساء الجبل دمامة ، وفي رجاله صباحة على عكس أهل السهل وجاء ابليس في صورة غلام ، وعمل فتى في بيت احد رجال السهل ، فاتخذ شيئا مثل الذى يزمر فيه الرعاة ، واستطاع بنفخة فيه ان يسحر اهل السهل وان يجمعهم حوله وان يحملهم على اتخاذ عيد في العام يجتمعون فيه ، وقد تزين فيه الرجال للنساء ، أو تزين النساء للرجال ورآهم أهل الجبل فاختلطوا بهم وظهرت الفاحشة بين الرجال والنساء . »

لا احتاج ان ادفع عن ابن جرير فهو لايكتب هذا على انه الحق الذى

لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا خلفه فى تفسير أصول الفاحشة عند الأقدمين ، لكنة يكتبه على انه اشارة تشير ورمز يرمز ، كما ترمز قصة الصنمين أساف ونائلة . كانت نائلة امـــرأة من جرهـــم وقع عليها أساف فى الكعبة فمس حجرين الى آخر القصه . قصص نسوقها لندلك على ان العربى الذى اتى الساحل ماكان يختلف عن الافريقى . من يدرى ، اكان يختلف عن الاوربى . سأعجب ان كان . وجاء الاسلام بمثله التى ما استطاعت كل الناس قيمه ، فكان الزجر الذى رأيت ، وكان أن مضى الناس يسعون للتوفيق بين المرجو والمستطاع ، وكانت الغلبة اكثر الاحيان للمستطاع . قلب ان شئت « لسان العرب » وقف عند كلمة « سر » انها بريئة براءة الوليد ، ولكن أمض قليلا معها لتجد انها تشير الى ثقافة عامة بين العرب وحضارة معروفة . انها الاصل فى كلمة « سرية » يعرفها صاحب اللسان بانها « موضع سرور الرجل » وتمضى فى الفصل لآخره ، فترى ان الكلمة تشير ايضا لعضو التناسل عند الرجل ، وكثيرة غيرها من الكلمات التى تعبر عن منظمات وتقاليد كانت مقبولة . « العقر » مثلا « دبة الفرج » و « الشبر » « حق النكاح » . ماحمل العرب ولا الاسلام للافريقى غير بضاعته إذن . كانت « موضع سرور الرجل » عند العربى و « كوز ذرة . . . » عند الافريقى . كان لقاء حضاريا ما وسعه علم الشانئين آنذاك ، لقاء بين قوم لم تؤدهم قيم اسلامية أو نصرانية . رجال طبيعيون ونساء طبيعيات ، ذلك لأن اللقاء على الساحل الشرقى كان سنين قبل فجر الاسلام ، وامتد لضحاه ، وكان منطقيا ان يأخذ اللقـــاء بعد الاسلام بشىء مما ترك اللقاء قبله ، وجدير بك وبى ان نذكر ان حملة اللقاء ما كانوا من أهل الأسالة ، اضعفت متنهم ليـــالى الذكر . كانوا مـــلاحين لهم صنان . ضاق بهم القس ستير ومن نهج نهجه ممن يقومون الليل ، فى النهار عيونهم جحماء .

(٤)

ماأتى العرب شرق القارة ، وسطها ، وجنوبها الوسط يحملون اسلامهم على كفهم ، أن تعالوا للرب في الاعالى . أتوا الاقاليم قبل الاسلام ، وقويت به يدهم حين اعتنقوه ، كان عنصرا من عناصر التجمع ذى الهدف والاتجاه ساروا تحت اعلامه معا من الساحل ليوغندا الحالية والكنغو وزامبيا وروديسيا ، جنبا لجنب مع قوافل التجارة التى عرفت شواطىء المحيط الهندى الغربية اكثر من الف عام قبل . هم الذين ادخلوا هذا الاقاليم فى نطاق التجارة النافقة في المحيط الهندى تمس الساحل احيانا وتتصدى للداخل القصى تحول دونه الطبيعة القاسية . حقائق اصبحت اليوم ميسورة شكراً لابن بطوطه الذى ماعرف الكلال ، كان هناك قبل ستمائة سنة ، للمسعودى اوثق الراصدين وغيرهما من الرحالة الجغرافيين الذى اشار اليهم قبن فيما رأيت قبل قليل . يرفد الذى رأوا ورصدوا ، علماء الآثار فى هذه الايام ، عثروا على وثائق عربية ترجع لعامى ١٥٢٠ ، ١٣٢٨ تؤكد لنا تأكيدا موثوقا الأثر الثقافى الذى كان للعرب والفرس على أهل الاقليم ، وتعزز ما ترامى الينا من اقاصيص واساطير كانت حتى امس القريب غير مكتوبة قليل منها جمع الآن ونشر على الناس ، كثير منها فى صدور الناس ماجمع بعد ونشر .

شبيه بهذا الذى نقول عن شرق القارة ، يقع الأن فى غربها . آثار اقدام المسلمين يكتشفها المنقبون كل حين منذ عقدين . علق بازل دافدسن ، يعلق على هذه الاضواء افريقيا « عطية من عطايا العرب لافريقيا احدثت أثراً كان اكبر الأثر ، أعنى القراءة والكتابة . » صدق . ظلت اللغة العربية اللسان السائد فى المنطقة كما كانت اللاتينية في اوربا فى العصر الوسيط . اتخذت مكانها المرموق حوالى عام ٨٥٠ . عثر المنقبون

عام ١٩٣٩ على قبر الملك ابو عبد الله ، محمد في سامو على النيجر الاوسط وكانت الكتابة على شواهد القبر باللغة العربية . همست اللغة العربية في اذن افريقيا في القرن التاسع ووجدت سبيلها في يسر ووصلت قمة مجدها بعد قرنين من الضنى على يد علماء كثيرين ، كلهم أهل للذكر ، احمد بابا مثلا نموذج وحده فريد . سيرته تثير الاعجاب والشجن ، اقرب ماتكون لسيرة ابى حنيفة وبرتراند رسل . ماوهن امام ما اصابه من رهق من اجل ما كان يراه الطريق السوى . كتب فيما يعرف الباحثون حتى الآن ثلاثة عشر كتابا ، ومعجما كاملا عن علماء زمانه ، وخمسين بحثا في المذهب المالكي ومايدرى الواحد متى كان يجد الوقت وهدوء البال ، ذاك لأنه كان يتعثر من شدة لاخرى ، فقد كان رجل فكر وعمل فى آن واحد ، كما كان ابو حنيفة ورسل ، وذلك في زمان ما كانت المعرفة متاحة كما هي الآن . . مااشتهر بابا على النحو الذى اشتهر صاحب تاريخ السودان وصاحب الفتاش ، اثران عنيت بهما اوربا لاسباب علمية ، ماعنيت بآثار بابا لأنها ماكانت موضع عناية العلماء ، فقد كان الرجل منافحا عن الاسلام بقلمه وبدنه . يقرأ طلاب التاريخ الافريقى الاسلامى السعدى وكعت فى طبعات تجهد العين والذهن ، اعادت باريس طبعهما قريبا وكانا قد اختفيا الا من المكتبات الجامعية منذ ١٩١٣ حين طبعا اول مرة .

اردت ان تذكر ان للغة العربية تاريخا في افريقيا : ما اردت ان اضع بين يديك تاريخ العربية الطويل فى القارة . ذلك يقتضى كتابا ذا حجم أو كتب ، وأردت ان تذكر معي ان هذا اللسان كان وعاء الدين الاسلامى حمله كل مـــكان ، وعمدت عمداً لذلك لأني اســـوق حقائق التاريخ لهدف لا لأرصد . ما أكثر الكتابات التى ترصد ، تعطينا ما ينبغى ان نعرف ، لاتعيننا على ما ينبغى ان نحس ، والحس قاعدة السلوك . ماجدوى ان تعرف ان لم تحنك المعرفة على السلوك ، قاعدة لنا ان نجادل ما معها أو عليها في النظر ، لكنها ليست كذلك فى افريقيا . تجبهك حقيقة لايمكنك معها الا ان تفكر فى

المسلم الافريقى رأى النور فى جامعات اوربا ، يحيا فكرة وحيرة ويعجز على ان يعمل شيئا يعيش به الفكرة يخرج من الحيرة . يخشى ان يخاطر بالوظيفة ان كان واحداً من أدوات الحكومة ، وأن يخاطر بالتجارة إن كان واحداً من رجالها. يحيا على صعيدين لأنه بعض الاحيان ينتمى لكثره فى الناس لايحكمون ولا يديرون ، كالسنغال ، أو كثرة غير قليلة ، لامر كله بيد غيرهم كاثيوبيا ، يصانع حتى يستحيل أن يفعل ، فيقعى حذاء أكابر القوى الاخرى يصونهم ، الا القلة بالطبع مهما تسلطت كبرياؤهم ويصونهم ذكاؤهم وتتسلط عليهم دولة الاقلية القادرة ، بيـــدها ادوات القهر . تجد القلة الرافضـــة نفسها فى السجون كما وجد نفسه محمد ضياء فى السنغال ، او مشردين فى الافاق مثل الدجاز مشن تدلا بايرو فى اثيوبيا . رجلان عملا للسنغال واثيوبيا أكثر كثيراً من الذين يعيشـــون رفاهاً ماتعبوا له كما تعب هذان . ما رأوا عذاب العراك كما رأياه . رآه هذان وهما يكافحان لقضايا نجحت هى واخفقا مما.

سبب حيرة المسلم وقلقه هو انه حين يتقدم به العـــمر صبيا يروح مدارس المبشرين — أو هكذا كان يفعل على عهد النفوذ الأوربى — فيلقى شيئاً مما كتب المبشرون الاولون عن دينه ، أو يسمع مايشبه هذه الكتابات من جيل ربى على تلك الكتابات ، كله تحقير وضغن . يروون ان بعض هؤلاء كانوا يأخذون الصبية فى بعض قرى الجنوب عندنا لشجرة فى القرية ، من حين لآخر يزعمون لهم انها الشجرة التى كان يجمع عرب الشمال من المسلمين اجدادهم ، شد بعضهم لبعض فى حبال كيلا يهرب احد ، حتى يجئ تجار الرقيق يسوقونهم متاعاً لنا فى الشمال. الصبى المسلم — إن صحت الرواية — كان يتساءل ولا ريب ، أين هو بين الذى يقصه عليه غلاة المبشرين وبين الذى قاله له ابوه أو قرأه فى قرآن الخلوة ؟ ابوه ماضلله ، قرآنه لايأتيه الباطل بين يديه ، والمبشر ورع وتقى نظيف الثوب أخاذ ، حلو لسان ، يصعب عليك ان تنكره ، لكن يستحيل عليك ان تزور عن دينك الذى جئت به من بيتك أوخلوتك .. يسرف المنبتون من المبشرين يقولون عن ديانات افريقيا خرفا

وعن الاسلام سخفا ، يبنون من حيث لا يدر كون جسر لقاء بين الافريقى تنصر على يدهم والمسلم استعصى عليهم ظل حيث كان . يلتقى المسلم والمسيحى ، كلاهما افريقى ، الدين لايحول دون اللقـــاء . تقرأ قصص وروايات ومسرحيات الشباب الافريقى فى العقدين موضع حديثنا لاتجد غير سخط تذكر معه الأب شارلز دومنقو ، وسخرية تذكر معها القس ستولى حين يكتب النصارى المؤمنون بالمثل التى مات من اجلها يسوع . مأأبعد مابين المنظمات وجوهر الدين كما قال كاوندا فيما رويت لك قبل قليل ، وهو المؤمن التقى الورع . الذين اتخذوا الثقافة الاســلامية والحضــارة نهجــا للعيش وصلة بالله لايصدر عنهم شيء من هذا . يعنيهم الدين بالطبــع ، ولكنه لايمسك بخلاقيمهم فى الذى يكتبون .

سنعود بعد قليل نتملى اثر النصرانية فى العقل والوجدان الافريقى خلال ماكتب شباب النصارى ، وسنقف عند الذى ترك الاسلام من أثر فى عقل ووجدان شبابه . دعنا نؤكد حقيقة قبل ان نمضى : يأتى الذين ذهبوا طريق المسيح والذين ذهبوا طريق محمد نقطة يقفان عندها يلتقيان . يجيئان النقطة من طرائق تختلف . انهما افريقيان نهاية المطاف . لكم دينكم ولى دين، صحيح، ولكن تصادم الاسلام مع اديان اخرى فى القارة أمر آخر ، كما رأيت معى حين كنا نتحدث عن مؤتمرى باريس وروما منتصف الخمسينات . قالت الجماعة — إن كنت تذكر — ان « الهيبة » الافريقية اولى حتى من الدين الذى هو، أكثر العواطف أسراً للانسان . قالت إن وقف الدين أى دين طريق التصافى حول « الهيبة » ستلقى به جانبا . كل ضارة نافعة . الحت اوربا على مواطن الفرقة بين الافريقيين ، ووقفت طويلا عند الدين ، فكان رد الفعل هذا . املاه مناخ سياسى كان يفور بعاطفة الاستقلال وسيلة لذات افريقيا المتميزة ، لهيبتها المهدرة ، لبنائها الروحى والمادى .

عنصر آخر من العناصر التى اعانت على الامتزاج الثقافى الكامل بين العقل العربى الاسلامى والافريقى فى هذا الشطر الشرقى من افريقيا هو ان ترحل

العرب هنا كان يقابله منذ قبل الاسلام وبعد، ترحل الافريقيين في بلاد العرب وعيشهم هناك . ما كان الافريقي غريبا على العرب حين جاء بلاده ، لا ولا الافريقي جاهلا كل الجهل عن بلاد العرب . كانت تترامى إلى الأفريقى أنبــاء اهله في بلاد العرب وعيشهم هناك حـول شط العــرب ومسقط وعمان وشواطىء البحر الاحمر . إن ثورة الزنج التى هزت البصرة خمسة عشر عاما (٨٦٩ ـــ ٨٨٣) قتل فيها نصف مــليون منهم كما تقول المصادر الاوربية الحديثة ، وثقاتنــا المعاصرون ما قالوا لنا كثيراً عن هذه الثورة بعد لنصدق أو لا نصدق روايات « ذبح الرقيق » التى يرويها الاوربيون ، وآثارنا القديمة مخلوطة لانجد فيها غير إشارات لهذه الثورة ، يقف عندها وقفة عابرة ابو الحديد ويخلدها فى وجداننا ابن الرومى . يتحدث لاما عن « ذبح الرقيق » ويثيرنا عاطفيا ابن الرومى « هتك الزنج جهاراً محارم الاسلام » . اين الحقيقة بين شاعر ماعرف بالغلو وثقاة اوربيين يسوقون الشواهد على الذين يزعمون ؟ لايسعك مع هذا الا ان تنتهى الى ان اعداد اعديدة من الافريقيين عاشت فى مدن العرب الكبيرة رقيقا اكثرهم ، بعضهم القليل اهل تجارة وأهل حرف . يقول واحد من هؤلاء الباحثين يعلق على الذى كتب الاغريق والرومان فى هذا الصدد قروناً قبل الاسلام « ان مزيداً من البحث سيقود الى قاعدة تاريخية تقيم عليهامنطقاً كاملا أو ذرة منطق لهذه الاساطير التى رووا عن البحارة الصومال والتجار من اكسيوم فى الحبشة » .

شواهد التاريخ كثيرة عن دور الصومال والحبوش فى البحر الاحمر والمحيط الهندى ، وانتصارهم على شواطىء هذه البحار ، شواهد ربما عززت كتاب الاثيوبيين عن « كبار الملوك » شجرة نسبهم ، يتداوله الاحباش حتى عصرنا هذا . وتقرأ صفحات من الجاحظ هنا وهناك فتكاد توقن أن الرواة الاوربيين قدماؤهم والمعاصرون ، ماباعدوا حين تحدثوا عن الافريقيين جزءاً من المجتمع العربى فى المناطق التى ذكرت . يقول قائلهم من الزنج يكاثر ويفاخر ويتحدث عن مكان اهله الافريقيين فى المجتمع البشرى ، وكانوا موضع التحقير

في الذى تقرأ بين سطوره : « انتم لم تروا الزنج الذين هم الزنج ، وأنما رأيتم السبى ، يجيء من سواحل قنبلة وغيافها واوديتها ، ومن مهنتنا وسفلتنا وعبيدنا ». كان راضيا عن مكانه حيث كان في بلاد العرب ومكان غيره من لداته. ماكان من عرض الناس حين كان على زمانه « السودان انتن الناس أباطا واعراقا . » في الذى زعموا وســار . « اعراقا » هى التى اهاجته للذى قال ، وعلى عهده ذهب العربى المذاهب في تحقير اهله حتى لقال قائلهم ان الزنج يعتلون غيرهم في الوقائع لأنهم . . « رجال ذفر . » تفر الجنود من صنانهم لارماحـــهم . صنانهم لاتطاق ، نتنهم .

كائنا من كان هذا الذى نقل عنه الجاحظ ، أنازعيم لك بأنه كان يعرف ان الافريقيين اتخذوا مع الزمان مكانا في مقدمة القادة في كل حقل ، وبعيد الا تكون اصداء قولة عامر بن الطفيل قد بقيت في الاذهان وهو يتحدث عن حراس آلهة قريش ، والاسلام غض يحبو على مهل يحاذر يدعو للأله الواحد ، عوض اللات والعزى ومناة واساف ونائلة الاخرى . رأى عامر حراس هذه الالهة في وجه الاسلام القادم فاطمأن قلبه على دين قريش من هذا البدع ، وقال قولته الشهيرة عن : « ولد عبد المطلب العشرة السادة يطوفون حول اللات والعزى وغيرهما من الارباب ، كأنهم جمال جون ، » وكانت اسرة ابى طالب في الذى يروى الجاحظ « سود وآدم ودلم » وابو طالب حامى النبى الذى نكد عيشه حين اضطر ليختار بين كبريائه والحق الذى كان يدعو له محمد وهو في حماه . كان اهله سود وادم ودلم وكانت عين محمد على عشيرته هذه السود والدلم وعلى الذى يلقى غيرهم من لأى وعنت ، لايحرسهم بيت كبير كبيت ابى طالب ، قال حين ضاق : « لافضل لابن بيضاء على ابن سوداء ، لافضل لمتحدث بالعربية على غيره مما لايتحدث . الفضل بالتقوى . . . . . » ولن نضيع وقتنا ان نقلنا هنا عن الاقدمين بعض مظـــاهر هذا المبدأ في اعمال كثيرة صدرت عن محمد ، وحمل عبرتها المسلمون الاولون حيث راحوا ، فيسر لهم ان ينتشر الدين ، كما سترى حين تنتقل بالحديث لغرب القارة بعد حين . ماكان يصدر

عن هوى حين أفصح محمد عن ذاته يقول : « جعلناكم شعوبا وقبائل » أية أريد بها عمل لاعادة خلق المجتمع . لنقف اذن قليلا عند رجال ومواقف وازمان تفسر لنا سر الذى يقول الباحثون الاوربيون عن القربى بين الثقافتين والحضارتين الاسلاميتين والافريقيتين .ما كانت الفوضى ولا كانت الاباحية كما وهم القس ستير . قامت المثل الاسلامية والتاريخ الاسلامى ، فى مجتمع عرف الافريقيين وآلامهم فى وسط عربى كان مزهواً بنفسه يختال ، يحول دونه وتوقير الاخرين ، ثراء عريض ولسان مبين ثم أدرك .

كان عتبة بن حذيفة عبداً لآل عتبة ، وحين فك أسره بعد الاسلام ، لم يجد العاتقون أباً له يعرفونه ويعرفه ، فأضفوا عليه اسمهم ، وتزوج من بعد فاطمة بنت الوليد بن عتبة ابن اخ سيده قبل عتقه ، وعاش عمره عالما ، آثار يده على علوم عدة يعرفها القارئون سير الصحابة والتابعين ، وبلغ من علمه ومكانه فى قلوب الناس مبلغا قال معه عمر : « لو كان سالم حيا لاخترته خليفة للمسلمين من بعدى » وما كان عمر ممن يلغون يهذرون . كان يعرف للعالمين مكانهم الا نيل . كان رجل دولة . هو الذى اختار صهيبا بن سنان ليؤم الناس فى الصلاة حتى يختار القادة خليفته وهو على فراش موته . وما كان يجهل عجمة صهيب فى الحديث ولكنه كان يقصد لاشياء لو عاش لحمل الناس عليها . أشياء تعرفها حين تقف عند وصيته للستة الاخيار الذين عهد اليهم ان يختاروا الخليفة بعده . . . نصح عليا الا يؤثر بنى هاشم على غيرهم ان اختير هو للامامة والقيادة . ورجا سعداً الا يكون اهله موضع الرعاية بين الناس وغيرهم موضع الرقابة ، اوصاهم جميعاً الا يؤثروا اهلهم على غيرهم من الناس « انهضوا حثيثا وليقع اختياركم على الاوفق ، وليقم الصلاة صهيب » .

ترك عمر السود والبيض امة واحدة على ذلك القدر الذى تأذن به الانانية الانسانية وحب القادرين لذواتهم . يخشون ظلال من يحسبونهم بديلا لهم ، يعملون الليل الا أقله كى يحجبوا هؤلاء عن أعين الناس . عمر

ماشرك الناس هذه الحلة. كان يعرف انه اتى مكانه بحق ، يثق فى ذات نفسه . كان يقـــدم . هو الذى عهد لعمار بن ياسر ولاية الكوفة ، وكان إبن أمة سوداء ، هى سمية ابنة خياط ، وما ارتفع صوت يجادله من قريش . كان المعلم والقائد ينير الطريق للناس ، شق عليهم ان يسيروه بعده ، كانت سبيلا وعرة ، إلا على قلة كعبد الله بن جعفر الذى عوتب فى شعر لنصيب ابى محجن ، القلة التى استطاعت ما استطاع عمر من شدة ورحمة فى بناء الدولة . قيل له :

— اتصنع هذا بمثل هذا العبد الاسود ؟

— اما والله لئن كان جلده اسود ، فان ثناءه لابيض ، وان شعره لعربى ، وقد استحق بما قال اكثر مما نال . . . .

ما كان ممكنا ان يسأل الناس عمر ، رهبة فيما تقول الكتب ، ربما ، الحق ان عمر كان قريب العهد بمحمد حامل راية الشراكة الانسانية. قهر نبلاء قريش فألفوا دعوته : الناس اكفاء فى عين الله ، أولى بهم ان يكونوا فى أعين الناس. اتوه يشكون من ان يكون قائد جيشهم أســـامه بن زيد . ما بلغ من العمر مبلغ الكبار ، أفطس الانف ، اقرب للسواد من « الخضرة » العربية . وقعت الشكوى على آذان لاتصيخ فراحوا يجهدون يريدون ليثيروا فيه نعرة الأولين يقولون له انه واحد من بيوتات قريش ، وبعيد عليه ان يأذن للسود ان يتقدموا البيض من اهله . اخفقوا فى ان يثنوه عن عزمه وادرك محمد ان الكفاءة التى يدعوا لها بين الناس ما قرت فى الوجدان العربى بعد ، فاستقر على ان يدفعها بالعمل كما دفعها بالقول ، وشرع يرقب الاحداث كى ينتفع بواحدة منها حين تجيء سبيله ، يوقت عمله يجيء ساعة يختارها . كان يريد لنبلاء قريش واهل البيوتات ان يعرفوا مراميه البعيدة . نعم . انه واحد منهم ، ولكنه يحيا رسالة ، يرى غير مايرون . ثم جاءت الساعة التى كان يرقب . تنادى سادة قريش وتجمعوا عنده يرجونه الا يخلط فى مجلسه بينهم وبين السود . اتوا يطلبون اليه يخصهم بندوات ، ويفعل الذى يريد من بعد ، يحيا رسالته دون

ان يطأ على اقدامهم، وفعل هذا الذى رجوه الا يفعل . وطأ اقد امهم فى غير ما هون ، حين اتته اللحظة التى كان يرقب ، وقال لهم الحق الامين الذى لن يحيد عنه ، لن يقيده بقيد . حق أمين مطلق . انه يهـدف ان يسـوى بين الناس ، فقرأ على الاشراف والنبلاء من أهله : « ولا تطرد الذين يدعون بربهم الغداة والعشى يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء ، فتطردهم فتكون من الظالمين . » هذا فيما يتصل بالحادثة المعينة . امسك بها محمد فى سعى جديد لينهى التفاضل بين العرب وغيرهم ، أو ليقلل من حدته ، فما فى وسع رجل ان ينهى مشكلة . فى وسعه ان يوفق بين المثاليات والواقع القائم .

سار عمر خطوات بعده حتى وفاته سنة ٦٤٤ ، وفى الرقعة الاسلامية ولاة اقاليم سود ، وقادة جيوش وعلماء ذو مكانة . اكتسب المواقع الاولى اسامه ، بلال ، صهيب ، وخباب ، راحو أعزة وكانوا من قبل رعايا لا مواطنين كما نميز بين الاكفاء وغيرهم هذه الايام فى تعابيرنا السياسية ، ووضعوا نهجا للاتجاهات الاجتماعية والقيادية لدى المسلمين . تركوا لمن اتوا على آثارهم مشقة الحفاظ على هذه المثل وسط مطامع وشهوات وهت معها يدها وترهلت مع الايام . يسأل على الزبير وطلحة يقول : « هل نقمتما على جورا فى حكم أو استئثارا بفيء » يقولان يصدقانه : « لا . ولا واحدة منهما ولكن الخوف وشدة المطامع . . » وحمزة الخارجى حين نتدبر معانى ما قال ، نراه مشرفا على واقع المسلمين . لقد ولى امرهم فيما كان يرى « قوم من الطلقاء ليسوا من المهاجرين والانصـار ولا التابعين باحسان ، فأكلوا مال الله أكلا ولعبوا بدين الله لعبا ، واتخـذوا عباد الله عبيدا ، فيا لها أمـة ما اضيعها واضعفها . . . » .

ولن تحسب الخارجى اغلظ أو ابعد عن الحق حين تذكر الشدة التى أخذ بها بعض الولاة الناس ، على يد شرطة وصفها عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر يستعطف واحدا فى سجنه يشكو اليه « قلة رحمة العمال الذين تستبد بهم الغلظة وتسيرهم الفظاظة وايرادهم علينا الغموم وتوجيههم

الينا الهموم ، زيارتهم للحراسة وبشارتهم الاياسة . »

استحالت القيم شيئا غير الذى اراده الاولون وشاه وجهها مع السباق على الرفاه والسلطان ، ولكن واحدة من حنيات التاريخ انقذت الاسلام فى افريقيا من هذه العهود التى فشت بعد عمر ، ذلك لآنه جاء القارة فى العقد الاول من القرن السابع ، ست اعوام فحسب بعد وفاة محمد يوم ٨ يونيو سنة ٦٣٢ . كان المناخ الذهنى الذى تركه مازال ماثلا للاذهان قارا فى القلوب اعوام معدودات بعد عودته لمكه ، على يمينه أسامه ، وعلى يساره بلال ، وكان كما تعرف ابهج ايامه : « اليوم اكملت لكم دينكم . . . . » نضال طويل انتصر لقيمة الانسان ، رمز اليها برفيقى كفاحه . لاشك عندى انه اختارهما اختيارا فما كان صعبا عليه ان يختار من رفاقه الاخرين من أشراف المهاجرين .

ترتبت على هذه الامور حقيقة تلفت نظر عناية الدارسين لمكان الدين فى الاطارين الثقافى والاجتماعى ، هى ان العرب حين التقوا بالبربر فى الشمال الافريقى وجدوا طريقهم للقلوب هناك ميسورة ، ذاك لأنهم اتوا تلك الاقاليم من مناخ فكري ما كانت فيه علائق البيض بالسمر بالسود بالصفر ، نقطة حديث فى الامة ، الا بذاك القدر الذى لايحول دونه حائل ، تنبع من عجز الواحد على التمام وان اراده فى أى مجتمع . حمل البربر الرسالة للغرب القصى من افريقيا عبر صحرائها الموحشة وبحارها المروعة ، وما كانوا رسل عرب فى الذى يفعلون . أضحت الرسالة ملكا لهم ايضا منذ اتخذوها وسيلة للعيش ودربا لله . ماحمل العرب لأفريقيا سيفا يقهــرن به ليحيا الافريقى حياة غير التى الفوا أو يحملونهم على طباع غير طباعهم التى ورثوا ، وكذلك فعل البربر . ماحملوا سيفا يذودون به عن أرباب لهم أو طباع أو طرائق عيش . التقت هذه كلها فى غير قليل عند البربر والافريقى . ولوشئت لاتيتك بالشواهد كثيرة فى كتب الفتوح والمغازى . لكنى لا كتب تاريخا خالصا ، أنا اكتب سيرة فكرة ، وأريد لترى معى شيئين يفسران لنا الظاهرة التى جهلها المبشرون

واخذوا يتحدثون عن إباحية الاسـلام سـببا للامتزاج العربى الافريقى ، وقف عندها العدول من الباحثين يرون الحقيقة على اضواء غير اضواء هؤلاء. العاملان اللذان يفوتان على كثيرين هما ان قلة قليلة من العرب هى التى صحبت البربر حين حملوا الرسالة للغرب ، وأن الاسلام جاء غرب القارة وشرقها لينا ألقاً ، ما مس قيمها اختلاطه بحضارات اقدم ، جفت الدماء فى عروقها ويبست منها العظام . بعد ستة اعوام فحسب من رحيل الرسول كان جديده المنعش يطرق باب الشمال الافريقى . بعد خمسين عاما من ذهاب عمر ، استقرت جماعات المسلمين استقرارا فى دهلك الجزيرة التى لا تبعد غير أميال عن ارتريا المعاصرة .

ولنقف مرة اخرى عند شرق القارة قبل ان نعود للغرب فالامر يختلف بين الشطرين . كان أثر الاسـلام هنا أعمق جذورا لأن الافريقيين — كما رأيت — كانوا قد عرفوا العرب قبله بكثير . كان سريعا الامتزاج الكامل، والقى جذوره قوية منتشرة، ترى آثارها القديمة اليوم بعد عشرة قرون. تراها فى الذى رأيت انا من بقايا ذلك العهد، بعضها يندرس وبعضها يقاوم، عصيا على الزمن:

وجدتنى صيف سنة ١٩٦٢ فى رباط تريم مغبرا من رحلة عبر الصحراء داخل لاندروفر جنب صديق صبا كان يعمل مستشارا للسلطان فى سيون ، مقر الامارة ، رجلا سفارا، عظيم الخلق والقوة. استقربنا مطافنا فى رباط تريم التى يعرف صديقى المستشار كل حارة فيها وزقاق ومعنى العمامة الخضراء وأختها البيضاء . كانت فى القرن الوسيط الاول ، على عهد مملكة سبأ ، أزهر ذلك الاقليم، قيروانه، مقعد العلوم الاسلامية والمعرفة العربية. لقيت فى المعهد العتيد حفنة من شباب افريقيا ، واحد منهم أتى الرباط من قلب يوقندا . كان يعمل فى دار عربى موسر فى ممبسا ، وانتقل منها يعمل فى مركب من مراكب الزمان القديم أرست مراسيها فى ساحل عربى غير بعيد من سيون ، ووجد الطريق من بعد الى تريم التى ترامت اليه انباؤه وهو فى مساجد ممبسا ومجالس تجارها . جاءها يتفقه دينه الذى ورث عن اهله فى يوقندا ، ويطل على علومه

العدة مما يتعلم من عربية لابد منها للفقه والعلوم . كان الرباط ــ فيما قال لى الصديق ــ واحدا من قبلات الافريقيين على عهده الزاهر ــ كان يقصدها ذاك الزمان خمسمائة طالبا كل عام ، نصف هؤلاء من الساحل الشرقى للقارة الافريقية . ما أكذبته . المدينة يحيط بها سور ، داخل السور ٣٦٥ مسجدا ، قليلها باق ، اكثرها يتهالك . ماانافست تريم هذه غير زبيد فى اليمن . قيل لى فى النادى العربى فى تنقانيكا ان عددا من الصبيان يروحون لزبيد يدرسون القرآن وعلومه ، كما كان يفعل الاولون . أشياء تعزز اكثر ما يقوله مؤرخو شرق افريقيا على أيامنا هذه . أشياء يحجبها عن قومهم أهل الهوى جعلوا العلاقة بين الاسلام والنصرانيـــة خصاما ، ينبغى أن يفنى معـــه واحد من المتحاربين ، لا وفاقا حرا للافريقى فيه أن يختار الذى يتفق وهواه فى التقدم المادى والروحى لانسان افريقيا .

(٥)

أن حقائق التاريخ المرصودة تشير الى ان سلسلة من المواطن الاسلامية في منتصف القرن التاسع كانت ممسكة بعضها ببعض حول الساحل . كلوا كانت الاصـــل . اشاع الاسلام وسلطـــان المسلمين فيها افريقي قادر هو موريري وابادي ، الذي كان يؤم القلة المسلمة في زاوية بناها بيديه ويدى اخوته ، وبعون من تجار الاقليم في مسقط وعمان وجنوب الجزيرة واليمن . يستعرض فريمان قرانقل هذه المواقع واحدة اثر اخرى وينتهي الى ان بعضها كان على الارجح من بناء الحميديين ، ويتحدث كثيرون غير قرانقل عن مدن أخرى قامت على عهد عبد الملك بن مروان تمتد من مقديشو في الشمال وكلوا الجزيرة في الجنوب . بين هذين باتي ، مالندي ، ممبسا ، زنجبار ، لامو ، كسابو ، وغيرها من المدن هؤلاء يثيرون ريبة غيرهـــم ممن يقرؤن في الحجرات المكتبات لايرون بأعينهم ، لأنهم لا يتنقلون يروا بأعينهم ما ينقب المنقبون . التنقيب عمل موحش لا يطيقـــه غير ذوى العزم . لا يؤمنون الا اذا وثقوا من الذي يقال لهم خلال قراءات يساند بعضها بعضا ، يعززها التنقيب . لست واحدا من هذين ، لا قارىء متفرغ ، ولا حافر منقب . مبررى في دعواى هذه اني اعرف قدرة السوري : قدرة سوريا التي اعطت التاريخ البشري قدموس المغامر المخاطر. لا تعدل مغامرات رجالات سوريا القديمة ، ابنة فينيقيا غير كفاءات قليلة اليوم ، الصعاب في وجـــه عزيمتهم الكاسرة تهون .

أقام العرب في هذه الاندلس الاخرى سبعا وثلاثين مدينة بين مقديشو في الشمال وكلوا الجزيرة في الجنوب ، فيما نعرف حتى الآن وعلم الاثار في تلك المنطقة طفل يحبو . ماندرى ماذا سيكشف لنا حين يستقيم عـــوده

مع الايام . كانت كل واحدة من هذه المدن موطن علم وتجارة رقيق ولو شهدت الذى شهدت انا منذ اعوام فى مالندى لاحسست بحسرة . يعجز الانسان أن يعيش جنب أخيه .

يتحدث اليك السواحليون بلغة عربية لكنه ، ويدعونك فى زهو لايخفونه عليك ابن العرب ، لترى صخرة يقولون فى همس انها صخرة سندباد، ترمز عندهم فيما يقدر الواحد مما يهمسون خشية السلطان . السواحليون عرب وهم فئة قليلة عليها ان تعيش فى الظل.النور يسترعى انتباه الكثرة الافريقية السوداء التى لاتذكر تاريخهم هناك بكثير من الحب . إنهم فى التحليل النهائى تجار الرقيق إلى آخر ما قر فى ذهن الافريقى منذ أيامه الاولى فى مدرسة المبشر . تاريخهم وأعمالهم ترمز للحسب القديم والنسب فعرب الساحل يعرفون، كما تعرف انت وانا أن القصص التى جمعت من افواه الناس عن مغامرات سندباد فى الف ليلة وليلة كانت احاجى العجائز والصبية فى القرن التاسع .جمع اكثرها ابوزيد الحسنى الصيرافى —على أوثق الاقوال— فى البصرة وبغداد.رابطة قديمة بين أهل الساحل فى افريقيا وأهل بغداد وغير هذين من عواصم العرب، يفاخر بهاالقوم هناك على حذر . إنها فئة قليلة نشطة قادرة تعايش الكثرة . ملأ المغالون من المبشرين ورسل الامبراطورية قلوب الافريقيين غلا على العرب. ارتبط أسمهم ارتباط بالاسلام . ان جهروا بعاطفة نحو العرب أو الاسلام ، أبعدوا من منافذ السلطة والعيش الرخى فى ختل يحس الواحد اثره ولا يعرف مصدره . وعرفت انت هذا كما عرفته انا حين وقعت الواقعة فى زنجبار ١٩٦٢ ، واغفر لى دعواى ان قلت انى رأيت الذى رأى ابوسفيان يوم السقيفة وانا فى زنجبار . رأيت « . . . عجاجة لا يطفئها الا الدم » .

كان اصدقائى دعاة ثقافة عربية إسلامية يحسبون أنفسهم فى أمان لأنهم ينتمون ، إن كنت تدرك ماأريد . غيرهم لاينتمى . أخلاف أجداد من المسلمين على عهده الآخر ، الذى هزلت فيه قيم الاسلام الاولى ، رجعت للذى كانت تعيشه قبل الاسلام، أسكرهم الاقتدار . والاقتدار يسكر العاجز .

قالوا « السودان انتن الناس أباطا واعراقا . » كما قال الاقدمون منا . ماكانوا حذقة . انت لاتحتاج الحق كله لتدير شئون دولة . يكفيك بعض الحق . لا أقول هذا أجرح ذلك الشباب الطاهر فى الحزب الوطنى ، يحى بعضهم بعضا فى الطريق العام « حى » .أسال ماالذى يعنون ، يقولون أنهم يعنون (حى العرب) يسقطون كلمة « العرب » يصانعون الشيرازيين والسود ، تصلهم بالعرب واثقة الاسلام ، تفصلهم عنهم الاعراق . تجمعهم بالساحل الافريقى جامعة اللون . كان اللون على أيامنا تلك يعنى الجامعة الإفريقية . يرسل الساسة السود من تنقانيكا كل ليل مراكب ملاى بهم ، لتصوت الى جانب السود نصارى أو مسلمين . الصراع كان على النفوذ ، الخيار بين السود والبيض والادارة البريطانية قلبها وعقلها معلقان . الرومانسية بالعرب فى زنجبار تدغدغ عاطفتها . غاياتها الاقتصادية كثيرة على الساحل ، لاحياة لها مع الرومانس .

كانت القلة العربية على ايامى هناك تعد للأنتخابات ترجو الاستقلال لزنجبار واختها الصغيرة بمبا ، تلوح هذه القلة بصور عبد الناصر ، فى وقت كان عار السويس فى بريطانيا جرحا ينكأ قلب الادارة البريطانية كل مكان . بريطانيا ذاتها كانت فى سبيل أن تتحول من حال لحال . كان مفترق طرق فى حياتها الاجتماعية والسياسية أقبل بعضهم على بعض يتلاومون .

ماقرأ « الحزب الوطنى » ماكان ينبغى له ان يقرأ فى ذاك الحادث ، ما كان نقصا فى الذكاء ، ولا كان غير معرفة بالتوءات السياسة فقد كانوا وطنيين ، وكان بعضهم رجال دولة . أتتهم المتاعب من حيث لا يحسبون . كان فى كل مكتب من مكاتب الحزب صورة لعبد الناصر ، وعلى كل حانوت عربى كذلك ، وما هكذا كانت الحال فى مكاتب وحوانيت حزب الافروشيرازى . كان العرب يعملون للاستقلال الوطنى وعينهم على هذه العزة التى احسها العرب بخسارة عدوان السويس . ماجاء فى بالهم انهم بعيدون فى الزمان والمكان . ماقدروا ان خسارة عدوان السويس كان انتصارا للعرب نعم ، وكان بعين المقدار انتصارا لفئة من القوى الكبرى على فئة .

كانت الساحة عربية ، والقتال غير عربى . كان من آثار هذا ان ذكر العرب فى زنجبار عزهم الاقدم وازدهارهم الاول ، وفات عليهم وهم فى غمار النضال ان يحرسوا أنفسهم من فواجع لم يروها ، بعد أن ربحوا معارك الاستقلال فى ظل انتصار السويس الخليط أصبحوا ذات فجر سنة واحدة بعد الاستقلال سنة ١٩٦٢ فى قبضة صبى ملتاث تلفح به شتيت من الناس ، درب بعضهم صناعة الثورات ودربه بعضهم غريزة حانقة . . حسبوا الثورة حقدا ، حسبوها دما . تلفح الشيخ عبيد كرومى بالمارشال أوكيلو وانقض انقضاضا على العرب . كان اوكيلو واحداً من عرض الناس . خوفى على نفسى من أن ترمينى بالخرف ، يمنعنى من أن أقول أنه كان سوط عذاب ارسلته السماء ، طيراً ابابيل ، أما الشيخ ، ولا أعرف حتى يومى هذا كيف استحق هذا اللقب ، أنى له ، وهو لا يتقن حتى السواحلية . رأيته يخطب جموع الافروشيرازى ، وجاء فى خاطرى انه أتى القيادة والرئاسة تحمله اكتافه العريضة واهدابه الحادة وعيونه الحمر الجحظ ورأسه الضخم . طرزان انسان . تجهمه ، تخافه . تخاله سيعتدى عليك بواحد من ذراعيه الطويلين ينتهيان عند مقدم ساقه باصابع ، كل واحد منها عصاة بقروح .

كان العرب فى ناديهم الظليل تنعشك فيه روائح القرنفل ، لايعنون حتى بقدحه . شغلهم عن كروم وعن قدراته القتول حسبانهم انه غير أهل . لا يسوى . ماترك قبيحة الا واقعها . وشغلهم عنه زهو بالجدود والعلم والنفوذ ، حتى أتاهم متلفحا بليل وسمرة اللون عندهم وسواده الاسود . وجاءهم ذات فجر . معه بصبيه الملتاث وشيعته التى سيرتها مذاهب سياسية اتوا بها من بلاد بعيدة . أقبل المسلمون ذاك الصباح بعضهم على بعض ، يتذابحون ، وكانت الغلبة للسود على السمر ، ولاصحاب المذاهب على اصحاب النفوذ والسلطان . ما كان فى طوق العرب فى إقليمهم البعيد فى الشام ومصر ولا فى طوق المسلمين ان يعينوا كما خيل لاهل الجزيرة تلك اللحظة البارقة من تاريخ العرب الحديث . روها كما رأى العرب جرسة العدوان على مصر ، القاهرة . قبلوا الختام فالمراد لا سبيل اليه .

الطريق بعيدة عليهم والتاريخ البعيد نسو ما عرفوه قصة ستروى بدقائقها يوما من الايام لأنها خاتمـــة مطاف طويل للعرب والمسلمين ، تتمثل فيها صراع حضارات وثقافات غير قليلة ، بدأت قرونا قبل كرومى واخصامه .

كانت زنجبار التى اغتصبها بليل كرومى وشيعته موقعا من مواقع العرب الاولين والمسلمين من بعد. انطلقوا منها ومن اختها الصغيرة بمبا للداخل حتى شواطئ زمبيزى ، واقليم روديسيا وزامبيا. عاش آلاف منهم نحو سبعة قرون يتأفرقون ويعربون . يأخذ بعضهم عن بعض وسائل العيش وطرائقه ، حتى اتت البرتغال قوية فى التجارة والبحارة وسبل الحرب ، فاخرجوا العرب من داخل الاقليم فى القـــرن السادس عشر ، ولاذ هؤلاء ا بجزيرتهم وبالساحل فى تواضع فرضه التجار والحكام من رسل الملوك فى لشبونه . ولى الامر فى زنجبار سلاطين أعاد بعضهم الحياة نشطة فى نفوس العرب ، فعادوا للداخل افواجا قليلة تقاتل طريقها فى الثلاثينات من القرن الماضى . ما قهرت روحهم جحـــافل البرتغال وكانوا أقل عددا وعـــدة . حملتهم من بعد قهرهم موجة من التجارة النشطة فى الرق والعاج ، وكادت ان تستعيد لهم ماكان بيدهم من مكان ، لكن اوربا الغربية كانت تعيش اوفر ايامها على ذلك العهد . عهد ثورة الصناعة . كانت تراخت يد البرتغال ، وقويت يد العرب غير قليل .

فى الوقت عينه كانت اوربا الغربية قد بلغت القمة بالثورة الصناعية ، ففاض ماتنتج على ماتريد ، وماتدخر على ماتستطيع ان تستثمر ، فخرجت تطلب الاسواق للسلع والارض والمعادن للاستثمار ، وصحبت هذه نهضة فكرية أوحت للأنسان الاوربى ، أنه القيم على غيره من الناس ، يملك حضارة وثقافة ودينا وصناعة وتجارة ، عليه ان يسير بها فى الارض ، يحمل عبء « رسالة التمدين » . كان سهلا على بريطانيا وهى التى سبقت أوربا إلى الثورة الصناعية أن تصد عن قلب القارة تقـــدم الاســـلام من هنا فى الشمال ، أقصد وادى النيل ومن الشرق فى زنجبار . وكانت أقتعدت مكانا عزيزا على البابين يدها

هى العليا فى الساحل الشرقى وفى الوسط القريب من افريقيا . ما سبقتها لذا السلطان يد من قبل . فى الوقت عينه عرف رسل ليوبولد كيف يستأثرون بالتجارة والزراعة فى الكنقو ، وكانت ملكا خالصا له هو لا لبلجيكا. طرد رسل ليوبولد العرب طردا ، وكانوا احلافهم من قبل . ماعادت بهم حاجة للذين رادوا السبيل أول الأمر ثم معهم بعد حين ، يزرعون ، يشترون ، آخر المطاف كانوا يحكمون . « جبلت القلوب على حب من احسن اليها ، وبغض من أساء اليها . » فروا من السلاح الجديد لاقبل لهم به ، لكن آثار اقدامهم بقيت ليومك هذا فما كــــان ممكنا لذاك الخليط الوثيق بين الافريقى والعربى والزمان الطويل الا يترك آثارا باقية فى كاتنقا والكنغو وملاوى وتنزانيا .

اكبر اثر بــــقى هو الانسان السواحــــيلى . رجل مزيج من الحضارة الافريقية القديمة والثقافة العربية ، خليط ابتدع الثقافة السواحيلية التى نعرف اليوم ، فيه من العروبة والاسلام سمات ومن الحضارة والثقافة البانتوية سمات. وحدة متميزة وحضارة . . . قائمة على قواعدها ، لا هى ظل لحضارة الاسلام ولا ، هى بقية من فلسفات البانتو ، ذاك لأن الانسان السواحيلى ينطق بلسانه هو لا بلسان البانتو أو العرب ، وينطق بلغة قادرة حتى على شكسبير . ترجم نيريرى منذ اعوام يوليوس قيصر ، ويدير بالسواحيلية الآن حكومة ودولة ، «لغة عربية أفرقها الاهلون أو افريقية عربها القادمون » كما يقول بازل دافدسن . ظاهرة تشير الى مرونة العربية والى قدرة الافريقى .

لاتعرف اللغات الأخرى كثيرا مما كتب الشعراء والفقهاء والمؤرخون باللغة السواحيلية . ان عرفت لتيسر لنا ان نعرف اكثر من عبقرية الانسان السواحيلى . يختلف عن العربى على الساحل وعن الافريقى فى الداخل . إن عرفت لتيسر لنا بعد هذا ان نعرف اكثر عن حضارة افريقيا كما كانت ، وكيف تغيرت حين التقت بالعرب والمسلمين . ما وقع شىء من هذا بعد . لانعرف كثيرا عن الروح التى نتجت عن ذلك اللقاء ، فشرق افريقيا لم تكتب كثيرا نعرفه ، لا فى ذلك العهد القــــديم والوسيط ولا على ايامنا المعاصرة .

ما انجبت اشــباه بابا والســعدى وكحت مما يعــرف الباحثون اليوم . على الجانب الشرقي في القارة القليل الذى نعرفه واكثره شعر ،وكان أهل الساحل يتخذون الشعر اداة تعبيرهم الاولى كما كان العرب يفعلون ، فقــد كان الوافدون الأوائل عربا حتى قبل ان يعرف العرب الاسلام كما أوضحت ، ولن تخطيء مناخ الشعر العربي ان رأيت نماذج مما كتب عرب الساحل ، وهنا ينبغي ان اقول ان بحثا عن الاقليم لا يقف عند « يوتردي وانكشافي » يظل ابتر غير كامل.

انها الملحمة الطويلة طول المعلقات وبعض ملاحم اوربا . كتب « يقظة الروح » هذه عبد الله بن ناصر في ظل الهزيمة العربية الاسلامية في شرق افريقيا بين عامي ١٨١٠–١٨٢٠. يذكر هذه الملحمة في زنجبار العربي والشيرازي ، إن انت سألت عن الاصول الوجدانية للنهضة الاستقلالية في زنجبار كما فعلت انا . يذكرها الشباب من عرب وشيراز حين تسأل « اين القاعدة؟ أين المنبع؟» حين يعرضون عليك في فخار بعض الذى يكتبون هذه الأيام من شعر وقصص . لايعرف الناس فكراً « بروسا » كما نعبر عندنا ، لا أصول له ولا بذور . يقرأ عليك هذا الشباب على النحو الذى ينشد حامد العربي شعر نجيه العباسي كلاهما وانا اكتب في الرضوان لمن الرضوان ان لم يكن لابناهما .

هذه الملحمة معلقتهم ، ينشدون ابيات منها تعبر عن أساهم تلك الايام وهم يعملون للاستقلال يراه العرب على نحو والشيرازيون على نحو . طلاب حرية جميعا ويختلفون في وعــاء تلك الحــرية . مأساتهم هذه يحسون بها ، يلجئون للملحمة التي تعيد لرأيهم الشتيت أياما مضت من العيش الجميع ، تصطدم الثقافات ، تتداخل . واحب لنا ان نقف عند شطر من الملحمة ، وفي ذهننا الهزيمة التي ترصدها المعلقة السواحيلية ، والمأساة التي ثارت حين يقظ الناس يدعون للحرية ، واختار هذا الشطر لأنها شجتني حين تغنى بها الشباب يهتزون جسدا وعاطفة .

كم ثريا رأيت ، كم عظيما شهدت ،
كان شمسا تضيء كل كبير ،
كان شمسا سراتنا يجهرون

حين تطل ،
سيوفهم صقيلة ، كثيرة ، عزيزة ،
يهابها الغزاة .
وهى لا تهاب .
ثم ؟ . . . ثم ؟
اكتنزوا المال وعزوا بالبنين
ويلهم . . . ما أدركوا ،
القوة تخدم السلطان .
اتتهم الامور طيعة تطيع ،
وهموا انها كذاك كل حين ،
ما رصدوا النجوم ، دبروا الامور ،
اغفوا . ثم اخبت .
مشوا على الارض عينهم فى الاعالى ،
عالقة بالنجوم ، لاترى هنا . ارضنا .
كانت تصدق الذى ترى وتسمع
لا تشك لا تحاذر
أقفلت عيونهم رخاوة الحياة
كثرة النفوذ والسلطان .
ماعادوا يرون غير الذى لهم يقال .
ما رأو غير ما ترى عيون الزاحفين
للجاه زيفا ورياء ،
أبعدوا الاخيار والوفاء .
أبعدوهم احتقارا انصتوا للزيف والسقط .

ماأدرى إن كنت قد حملت لك الأثر الذى تتركه هذه الملحمة فى النفس ، لكنى أخاف الا تفعل فالكلمة المكتوبة فى هذا الصدد لاتصل

أعماقك كتلك المنغمة .أقول هذا لأنه هو الذى وقع لى .قرأت هذه الكلمات فى الانجليزية ولكنها — لم تهزنى على النحو الذى هزتنى اسمعها منغمة فى النادى العربى فى زنجبار — على جهلى بها — بالطبع . كان فى بالى ابو العتاهية على عهده الآخر وفى بالى جاهليون محككون ، قلبت دواوينهم من بعد كما أفعل من حين لآخر وقفت عند مطرود بن كعب :

وابكى — لك الويل — اما كنت باكية
لعبد شمس بشرقى البنيات
وهاشم فى ضريح وسط بلقعة
تسفى الرياح عليه بين غزات
أمست ديارهم منهم معطلة
وقد يكونون زينا فى السريات
افناهم الدهر أم كلت سيوفهم
أم كل من عاش ازواد المنيات
زين البيوت التى خلوا مساكنها
فاصبحت منهم وحشا خليات .

قابل هذه الاشطار باخوات لها فى ملحمة عبدالله بن ناصر ، لترى ما رأيت انا فى زنجبار من المناخ العربى الذى اشرت اليه ، اسمعها تترجم على النحو الذى تترجم فيه هذه الملاحم فى المجالس دون تدبر طويل ، تأمل . . . عفو خاطر . هكذا انا فى المنتدى الذى كنت اختلف اليه ، ينغم الشادى ، ويترجم عبد الله بن ناصر صديق فى الفجوات بين القراءات :

يرقدون ويحهم فى مدينة قبر ،
لاخمائل ، لاوسائد ، لاخدم ،
أجساد أقوت الروح منها ، رمم ،
والقبور ضيقة . هكذا القبور .
قصورهم بلت ، ما كان لها ان تروح ،

لم يكتنزوا الذهب ويقتنعون
بالسلطان خاويا ، يدقون اعناقهم دونه ،
الزهو يكفى والطواويس جميلة فرحانة ،
أيرون يارب القصور من قبورهم ؟ يارب
أرهم انوارا خفت ، الهى . ظلمة كظلمة القبور .
الوطاويط تطير من هنا ومن هنا ، وهى آمنة .
همساتها انتهت والهمسات تنقضى فى العادة .
ذوت الاشجار حول قصورهم ، خوت من البشر .
على السرائر العناكب ، السحالى على السقوف
آلت اليها حين راح الهامسون ، حذقهم ردة
الزمان على الاعناق منهم والكتوف ،
وراح الصارخون يفقهون أن يعيشوا ،
وغير ذاك لا يعنيهم ، أوغاد

لو شئت مضيت لكنى أطوف القارة اجمع تتعرف عليك ، لذا احب أن اعود بنا للشمال من هذا الشرق الذى نحن بصدده كى تكتمل الصورة بالقدر الذى يتيحه للواحد حديث يؤنس ، لا يهدف ان يعلم .

الجنوب القصى الذى رأيت فى زنجبار ما كان الا بضعا من الشمال فى شرق القارة حيث اكتشف المنقبون حتى الآن وثائق فى زيلع ومقديشو ترجع لعام ٧٢٠ ميلادية . كانت زيلع واختها مقديشو موقعين من مواقع القفز لداخل القارة قرونا قبل ذلك منهما ومن جزيرة دهلك . من هذه المواقع دخل العرب ودخل بعدهم العرب المسلمون فاقاموا فى وديان الحبشة ولايات اسلامية ، بدأت بينها وبين ملوك الحبشة فوق الهضاب وفى السهول ، حروب لم تنته الا عام ١٥٤٢ ، حين خف لعون ملوك الهضاب البرتغاليون ، وكانوا سدنة المسيحية الاوربية ، يعملون منذ القرن الثامن على تطويق الاسلام ، وقد بدا لهم خطره . كانوا يريدون للجزيرة العربية ان تشغل بنفسها عن اوربا ، تقاتل

جيوشا من خلفها لاتتقدم تخرج من الطوق فى الجزيرة .

كانت الحبشة على ذلك العهد ارض اساطير شدته اليها اوربا شدا لكثرة ماترامى اليها من أخبار تزعم أنها ارض الملك الصالح برسترجون ، حامى المسيحية فى الادغال والجبال ، وحين تداعت اليها أخبار أخرى ان الملك الصالح برسترجون يحكم الهند ، وكان الامر مختلطا فى ذهن عامة الناس وكثرة الخواص ، يزعمون احيانا ان الحبشة هى الهند وأن الهند الحبشة . ويعنينا هنا أن البرتغال رأت فى هذا الملك الصالح رسنا للاسلام يمسكه عن العدو وراء صحرائه. أرسلت الجنود المدرعة حتى هزم الاسلام على يدها ويد الاحباش فى الهضاب . وكانت الهزيمة هنا ايضا هزيمة سلطان لاحضارة . يطوف الواحد الآن فى هررشرق أثيوبيا وايفات فى الوسط ، فيرى كثيرا من عادات العرب فى المعمار وفى الزرع وفى التقاليد ، وقليلون ، اولئك الذين لا يتحدثون عربية من نوع بعد هذه القرون من العزلة ، ماخلت واحدة منها من اضطهاد لهذه الفئة ، لانها ترنو كغيرها من الطرائف المسلمة فى سائر القارة للبلاد العربية والاسلامية ، تتسقط اخبارها وتعنى باقدارها ، ولايدرى الواحد ان كانت هذه الجيوب ستظل على حالها محتفظة بشىء من قديمها ،أم سيندرس ذلك القديم . يتسائل الواحد لان نبض الحياة ما عاد بطيئا كما كان قبل سنين ، فالشباب فى المدارس والمعاهد يتعلمون لغة القائمين على الامر ، الامهرية فى اثيوبيا مثلا فرض حتم ، ولاسبيل للصغار للابقاء على القليل الذى نقلوه من كبارهم فى المسجد وفى البيت ؛ الكبار يزجون فراغهم امام المذياع الأثيوبي وهو يتحدث اليهم بلغات ليست العربية منها — الا بعض وقت — وعن اشياء لا تتصل بعالمهم القديم وحضاراتهم الاولى دع السياسة جانبا . قلبى مع قلبهم المفطور .

(٦)

لنعبر القارة للغرب ، وأحب لنا ان نذكر في مسارنا هذا من شرق افريقيا لغربها اني قلت من قبل ان الاسلام حين اتى هذا الاقليم من الشمال الافريقي جاءه وقد تخلص على عهدى محمد وعمر من ارستقراطية العرب لقاء الزنج ، السمر لقاء السود ؛ وذالك قدر ماتستطيع رسالة أن تتخلص من هوى الانسان. الانسان حبيس هواه ، ماعصم ربك غير قلة ؛ أحاد . سادت الطمأنينة رقعة الاسلام على عهد عمر ، فأمكن له ان يستشرف العالم خارج الجزيرة . ثم تيسر له ان يدير شئون رقعة امتدت على عهده واحتوت الناس ومايؤثرون. كان من هولاء البربر ، ومن البربر خرجت طائفـــة المرابطين التي حملت الاسلام لغرب القارة. اعان هذه الطائفة أنها ماكانت غريبة على تلكم الديار . كانوا يتجرون مع الاهلين ويعيشون بينهم قبل ان يعتنقوا الاسلام ويحتويهم الاسلام لم يشق عليهم ان يشيعوا عقيدتهم الجديدة ، وما تحمل من حضارة وثقافة. ماارتاب فيهم الافريقيون ولاخشوا بأسا قادما من الشمال عبر صحراء موحشة أو من الغرب عبر ساحل محيط مخوف . اكثر من هـــذا . ماجاءوا الاقليم يحملون عبء المبشر الاوربي يطوق عنقـــه . يحمل « رسالة الرجل الابيض » . ماقال المرابطون شيئا من هذا وماكانوا هم انفسهم عربا ليقولوا للزنج انهم أتوا يعينونهم على حياة « قيم العرب الاسلاميـــة » . كانوا أفارقة مسلمين فحسب ؛ ماكانت شكوكهم كثيرة كالتي اعاقت من قبل بعثات المبشرين الاولين ، وماكانت سحنهم غريبة على الاقليم ولا عاداتهم ، وماأحسوا وهم يتحدثون عن عقيدتهم الجديدة انهم رسل احد . ماساقهم العرب بالسيف أو الاغراء ، ماكانوا فرعا من أصل يرون ما أراد لهم دخيل واغل ان يروه .

اتخذهم رجل الدولة الحذق موسى بن نصير يدا عزيزة في الادارة

والحكـــومة . ماكانوا ادوات يحركها العرب الفاتحـــون . ألف قلوبهـــم وكانت تكاد تنفر على عهد عقبة بن نافع رجل الحروب والغزوات . أخذ البربر ومرابطوهم العبرة من الرجلين ، واحد منهما رجل دوله درب والاخر رجل حرب كذاك درب . لم يتصد تاجر أو رجل دين أو رجل دولة أو محارب لعادات افريقية لاتضار بها العقيدة . كانوا يعرفون ان محمدا نفسه لم يغلظ على القبيح الذى يشين الانســـان . وأد البنات مثلا . جادل فى هذا بالحسنى . جادل فى غيرها من تقاليد أهله ، وقضى الايام والليالى يفسر ما تريده آيات ربه ، وترك بعض الذى عجز عن اقتــلاعه من عاداتهم التى يحبون ، لتختلط مع اسلوب الاسلام ، تأخذ عنه قليلا قليلا ، تصير بضعا منه مع الايام ، وقد شذبت ، ذهب عنها الذى لا يتفق والحياة كما يراها الاســـلام . هكذا فعل البربر والمرابطون ، تركوا الاســـلام ينساب للحياة الاجتماعية والثقافية للافريقى ، وصنعوا حياة جديدة فى النهاية ، يحياها الافريقى المسلم ايامنا هذه المعاصرة : لانسى افريقيته كلها ولا تركها على ما كانت عليه . احس الزنجى أن العقيدة الجديدة لا تحقر عاداته ولاتراها غير جديرة . . سعد بهذا فمشى نحوها ، يحتضن كل شىء فيها ويغفر هفوات معتنقيها .

شاهدى على ما ادعى ذكريات الزنجى عن مجىء الاسلام اقليمه . نرى هذه الذكريات فى اقاصيص الأقاليم القديمة ، وقد شرع الشباب بجمعها الان فى كتب تمتع وتفيد . اقرأ إن أردت قصة « أمنا التمساح » لامادوا احمد وكومبا . تشير هذه القصة لبيض أتوا من الشمال رأتهم جدته يغسلون أيديهم وأذرعهم ووجوههم وأقدامهم ، وكل جارحة فيهم ، يتجهون من بعد لمطلع الشمس . تمضى العجوز بعد هذا تصف « لون الماء فى النهر » لقد « إستحال أحمر » من الدماء ، ومضى البيض طريقهم بعد أن علموا الاهلين كيف يركعون ويسجدون لله عند مطلع الشمس فى الشرق ، تأسرك العجوز وأنت تقرأ ذكرياتها . حتى حديثها عن بعض ما وقع من قتال ماكان معدى عنه ، حديث لامرارة فيه . عابر . تدرك من ذكريات العجوز أن الحضارة والثقافة الاسلاميتين لم تريا

أنفسهما بديلا للحضارة والثقافة الافريقيتين .

أتى الاسلام هذا الشطر من القارة عبر اعوام التجارة، وكانت تعرف من خبراتها أن الافريقي ، ماكان وعاءاً خاوياً تملــؤه أى شيء يمتلىء . سبورة سوداء تكتب ما تشاء عليها كما عبر البيض . رأى البربر من قبل أن للافريقي أسلوباً للحياة ، لايمكن للاسلوب الاسلامى أن يكون بديلا له، ورأوا من هذه النافذة أن الطيب هنا ينبغى أن يلتقى بالطيب هناك ، وما وقع صدام بين القيم . ترى هذا بينا أن نفذت للعقل المسلم في افريقيا خلال مايكتب وما يفعل . إنه مزيج من الثقافتين يتعسر على الواحد أحياناً أن يعرف العربى الاسلامى فى المزيج أو الافريقى أو البربرى . تنتهى من قرائتك ولقاءاتك إلى أن المثقف الافريقى المسلم وحدة متكاملة من هذه الثقافات الثلاث ، له سماته التى تميزه عن الافريقى ، وسماته التى تميزه من المسلم العربي . أقول تميزه لاتفضله . قيم تختلف عن قيم ورؤى للحياة تختلف، على أنه لن يستحيل عليك إن أنت أنعمت العين أن ترى منطقة اللقاء بين هذه الثقافات الثلاث وإن كانت فى الذى تراه العين العابرة شيئاً ، لا يتبين الواحد سماته فرط ما إختلطت هذه الثقافات، تداخلت . ودعنى اسق لك مثالا، أوضح به ما أقول من ناحية ، وأضــع بين يديك فى الوقت نفسه ، نموذجاً مما يكتب الشباب هذه السنين :

ليس عثمان سوس واحداً من أضواء القصة فى افريقيا ، مابلغ مبلغ كمارا ولامكان شنوا ولكنه يقترب من المشاهير من أخوانه حين يروى لك الذى كان من أمر كريم ومريم ، بطلى واحدة من قصصه القصيرة . ترى رغم اللغة الفرنسية التى كتب بها عثمان قصته ، أين تنتهى ثقافة من الثقافات الثلاث التى نمته وأين تبدأ أخرى ، وأين تمتزج كلا متكاملا . الاسلامية العربية روح غالبة ، الافريقية القديمة قاعدة بقيت رغم الاعاصير والقرون ، واللسان الفرنسى الجديد أداة التعبير . نرى فى القصة فضائل فتنت العرب ، ولم تكن بعيدة عن المزاج الافريقى . الحياء فى الفتاة ، الشهامة فى الفتى ،

توقير المرأة .

يخرج صاحبنا كريم هذا ، بطل القصة مع رفاقه يزور مريم في سان لوى « السنغال » ويريد ليشبع نهم عينيه من جمالها الذى أخذه . مريم ورفقتها يترقبن مقدمهم فقد كانوا يعرفون . . تعجب مريم بكريم . إنه الصورة التى رأت من بعيد . يدور حوار يشير فيه إشارات غير خفية إلى حرصه على الزواج منها . يعينه رفاقه . يتحدثون عنه . إنه موظف ذو شأن — نعم ، لكنهم لا يعنون بهذا كثيراً ، يذكرونه على عجل . إنها عندهم عرض ، والموظفون كثيرون . سمته المميزة مؤهلته للزواج من مريم ، إنه « سمبا لنقير » صفة كان يضفيها الاسبقون على المحارب لا ينهزم . يهزهن هذا ويهتزون. موسيقى أذن وغناء . يهتز كريم . يده فى جيبه تتساقط فرنكات فى صحن به ماء ، «نقطـــة» . يزداد الفنان فتنة بالسمبا لنقير . يعتدل فى جلسته . يمضى يغنى :

يا كريم
ياسليل كومابورسو
كوما ما مات فى فراشه
مات واقفاً ، هجليج
ذاد عن حياضنا
حتى وقع
جاءه الحتم ، ما خنع
عند شجرة السالوم
كان يوم حتفه
ظل تحت ظلها
دمه القانى الاريح
ينزف ، ينتهى .
أنت يا كريم نبيل
نماك كومانا الشهيد

درة في جيد قومنا عزيزة
يا كبير ود الاكابر
يا كريم

وتتدفق الفرنكات في الصحن ، نقط الماء تتطاير في العيون ، تبتسم . يسير الفنان لغايته . عينه تلقط مايهم ويعني ، تذهب مباشرة لقصدها :

حقا حقا يا مريم
جاك سمبا لنقير
جاك سمبا لنقير

ولا يملك واحد الا أن يشترك . لا تملك واحدة الا أن تصفق . صبايا وشباب يرددون « جاك سمبا لنقير » .

يخرج كريم من دار مريم رجلا غير الذى كان . يقف لحظات لدى الباب . وتقف . لا كلمة واحدة ، يلحق برفاقه ، وتلحق برفقتها . إنه مزهو ماعاد يستحي ، وكان من قبل يفعل . إنه « يتنبر » الآن ، وأرجو أن تجد الفراغ لتقرأ القصة كاملة في « بلاك أورفيوس » . كتب عثمان سوس عن سريحة من قصص الاخلاق ، مزهواً زهو بطله الذى خلقه ، بالتراث الذى مازال ينافح ليحيا في القرى حول داكار وغير داكار من مدن السنغال التي تلفها في لهفة حضارة الفرنسيس وثقافة باريس . إن الصفات التي يعيدها لذهن لداته عثمان ، عربية / افريقية / إسلامية .

ماكان صعباً على الثقافة العربية أن تدخل الاسرة الافريقية ، وسترى آثار هذا في الفكر الاسلامي المعاصر منه والوسيط ، حين اتصدى لهما بعد قليل ، لكنني أحب لك أن تقف بعض ساعة عند ادوارد بلايدين ، واحد من أضواء افريقيا . رأى في أخريات قرننا الماضي ، مالم تره العيون الاوربية . تحدث في ندواته وكتبه عن العزة التي يستشعرها الافريقي المسلم . صارت قاعدة النضال عنده الحرية . يلقاك هذا التعبير — العزة الافريقية — في أكثر الذى

كتب الكتاب وخطب الساسة قبيل وبعد الاستقلال . وأنا احثك على قراءة بلايدن إن جاء طريقك . أقتطف لك من عباراته التي مافتىء يردد الباحثون في القيم الاسلامية عند الافريقيين. قال ، وما كانت افريقيا يقظت من منامها بعد . . . « الدين الإسلامي يبحث عن الانسان الحقيقي ، يريد ليصوغه. لا يضيع وقتا يقضيـــه في الحديث ، عن الزوائد في حياته . الصغائر لا تعنيه ولا السفاسف . يشيع العزة في النفس الا نسانية. إن حملت على مايتقى ويمقت ، في نفس المسلم وسائل دفاعه عن عزته . لا يسع الأجنبي عن القارة الا أن يحترم الافريقي ،حين يعرف أن دينه الاسلام » وما كان في نصرانية بلايدن « زغل ». تقرى الدراسات عنه هذه الأيام ، ترى فيها أنه — في الحق — أبو النظرات المعاصرة في القارة ، ذاك لانه كان من اوسع الناس خيالا ، واقدرهم على التعبير عن ذات نفسه . يردون اليه الآن مفهوم « الشخصية الا فريقية » وهو مفهوم كانوا يردونه إلى نكروما فقد كان من مفاهيمه التي يردد في الذي يخطب والذي يقـــول . لعله توافق عقلين كبيرين وقلبين جديرين ، واليه يرد باحثو سيرته المليئة نظرة ، « الوطنية الثقافية » . أهتدى لهذه النظرات وغيرها وهو يطوف أوربا يدعوا لحرية الانسان الافريقي ، وقد تعرف عليه وهو صبي في مدارس المبشرين وكنائسهم في ليبريا ، التي اتخذها قاعدة يعمل منها ليقظة افريقيا بيد والتعريف بها بيد . كان قد هاجر اليها يافعاً من جزر الهند الغربية ، وتوحي اليك كتاباته وأعماله أنه كان يقابل في مطلع شبابه بين العقل الافريقي المسيحي ، والعقل الأفريقي المسلم ذاك أنه عاش منتصف وأخريات القرن الماضي والافريقي يسابق الزمن وقد باغته الغرب بالصليب والشرق بالمئذنة ، واختلطت عندها المنافع بروحانية المسيح ، عندها الكتاب المقدس تحمله فئة ، وعين أهل المال والتجارة ، ترنو لثروات القارة وأسواقها ، من جهة ، وكان على العلماء أن يعجلوا يسجلون تاريخهم لا تطمسه القوى الجديدة القادمة من بعيد ، وما كانت هناك سبيل غير أن يعودوا للثقاة الاقدمين أمثال أحمد بابا الذي قال عن نفسه أخريات القرن السادس عشر (ولد عام ١٥٥٦) « كانت مكتبتي

أصغر مكتبات اخوانى الدارسين فى السودان ، إذ كنت املك نحو الف وستمائة مجلدا ». كان حتما ان يقابل بلايدين بين الفكر الاسلامى وأثره على على انسان افريقيا ، والفكر المسيحى عليه ، وهو يشهد هذا كله . احمد بابا كان واحدا من الاعلام تعرف بلايدن على كتبه ، وما كان وحده بابا . كان الفكر المسيحى وليد اعلى عهـــده ، ما استقرت قواعده ، وكان بلايدن قد طوف أوربا ورأى أحرار ذلك الزمان ، كأحرار زماننا هذا ، قلة تصارع قوى افعل اثرا فى الحياة السياسية ، وكانت هذه القوى مطيه طيعة لاهل الصناعة والمال والذين يفلسفون لهم طموحهم أكثر الاحيان عن إيمان ساذج ، وبعض الاحيان عن دخل وزلفى تعين على العيش الرفيه الرخو . كان ذو البصر القلة يقـــارعون ليقتنع الاوربى أن الافريقى انسان ذو ملكات « منطقية » . لقى بلايدين عنتا أى عنت ليدلل على هذه الحقيقة الأولية ، تعينه هذه القله الحرة على نشر مايكتب وعلى اعداد ندوات يتحدث فيها ، وما بلـــغ مما أراد الا القليل ، لأن العقل الاوربى وقد ساد العقول كلها فى العالم بعد ثورته الصناعية وثوراته السياسية بعد ١٨٤٨ قد أبى غير عقله هو ، وخير شاهد اسوقه على دعواى وقع فى مقعد من مقاعد العلم العظيمة :

يروى سير نكس نايفن قصة وقعت احداثها فى كمبردج . ثار نزاع بين استاذ الدراسات الافريقية وزملائه اساتذة فروع المعرفة الاخرى لأنه قال كلمات طيبـــات عن طالب لاهوت أفريقى اسمه صمويل كراوثر . أوصى الاستاذ بان تمنح الجامعة جائزة اللاهوت لكراوثر. عجب زملاؤه وسخروا منه فاهتاج عقب اجتماع وقال «لقد سمعوا اجابات هذا الشاب وهم يمتحونه ، وخرجوا من قاعة الامتحانات يقولون انه ليس من ذوى الملكات المنطقية . بعض هؤلاء يفتقدون ، فى الذى أراه — ملكة اكبر شأنا من ملكة المنطق بل ملكات غيرها . انهم يفتقـــدون العدل العادى فى الحكم ، وأسوأ : يفتقدون الصراحة التى اتسمت بها اعمال المسيح ، صاحب الرسالة التى يقولون انهم على هديها يسيرون » .

ماضاع هدرا ضيق ذلك الاستاذ هذا ولاغيظه . عاش هذا الطالب النيجرى يخدم عقيدته حتى صار أول بطريق أسود فى الاقليم . يعده كاتب سيرته احد العشرة الكبار فى تاريخ الفكر والعمل الافريقى فى اربعينات القرن الماضى ، ويقف وقفات غير قصيرة عند اريحيته المسيحية النقيةوافريقيته التى علق بها وهام ، فى زمان كان الرجل الابيض ، لايرى غير عقيدته عقيدة ، ولا غير منحاه منحى فى الحياة . ازدهته الثــورة الصناعية وما اضفته عليه من قوة اقتصادية . يقول سيرنايقن يشيرلشخصيته الخارجة عن هذا الغلو انه « كان يحرس المسلمين حوله فى أى اقليم . يؤثرهم على غيرهم إيثارا يخيل لى معه أنه كان يمتع بالحوار الذكي الذى كان يديره معهم ، وكان يشير على زملائه فى الكنيسة من سود وبيض أن ينهجوا نهجه . يقول لهم كل مرة لا يمكن لأحد أن يحمل مسلما على غير مايريد . يستحيل عليك أن تمس دينه وتتوقع وأنت تفعل هذا أن يقوم بينك وبينه ود . لا تتقولوا على الاسلام . خير لنا كلنا ، هم ونحن الا ننتقد الاســلام » . كان كراوثر يسعى لينير الطريق للمبشرين البيض ، للسلام بين المسلم الافريقى والمسيحى ، ماعاقه عن سعيه جرحه ، وكان جرحا لا ينساه غير رجل واثق من نفسه يعتد بها ، لا يوغر صدره الصغار الذى يعيش عليه الصغار . كان كراوثر رجلا فحلا ، قبل ان يكون بطريقا ، أول بطريق أفريقى . الجرح الذى أشير اليه هو أن مسلما باعه . واعتقه آخر . محت افريقيته جراحه كان داعية الوئام والسلام بين الافريقيين نصارى ومسلمين .

(٧)

واضح مما أقول ان العقل الافريقي المسلم في افريقيا لم يلق عنتا ، يؤدده . توفرت له العوامل التي اتيت عليها ، وهي عوامل لم تتوفر للعقل الافريقي المسيحي . علائق المسيحية بالدين الذي حمله المبشرون البيض علائق معذبة ممزقة وعلائق الاسلام ماعرفت هذا الانفصام ، وكتابات الشباب المسيحي تكاد تكون وقفا على هذا التمزق الذي اشير اليه .

أبعد الكتاب الشباب صيتا في الخمسينات كان حزقيل مفاليل ولكن اعتداله في عقد كان الشقاق والنزاع مع الغرب في قمته ما أعانه كثيرا على البقاء في الزحام رغم وطنيته الصادقة ، وخياله الآسر ، وأسلوبه الساحر ، ولعلك قرأت في مطالعتي الاولى حديثا لي عنه غير قصير . تصديت في ذلك الحديث وهو يحاور دعاة الزنجية ، رفضها في زمان كانت الزنجية تيارا يخيف من لا يسبح معه . كان مفاليل حائرا بين الغرب الذي صنع عقله وقلبه في مدارسه وكنائسه وافريقيا التي صنعت جسده وجلده . كان صورة من ديا لو الذي عرفته اول الحديث . سعى ليوفق بين هذين وكتب كثيرا ثم توج كتاباته ببحث عن « صورة افريقيا » متزن كما يقولون ، حكيم . يعنون انه لا يمس البيض إلا مسا رفيقا لا يجرح . يؤمن بان العيش معهم لن يستحيل على الاسود في جنوب أفريقيا . ثم نما وكبر وخبر الاشياء وهو يطوف القارة بعد أن استحال عليه العيش في خناق جنوب افريقيا التي ولد فيها وقضى اوليات شبابه . رأى فجوة بين انسانيته الخالصة الطاهرة ، وانسانية الغرب التي رآها عارية من تزويق الكتب ، تخالطها انانية تتغول عليها كلما أقدمت على عمل . انتهى في الستينات الى مقالة ما حسب الناس أنها يمكن أن تصدر عنه صاحب « صورة افريقيا » كتب يقول « غدت الكنيسة عندنا رمزا لنفاق الغرب وكذبه »

وكان يتحدث عن افريقيا كلها لا عن موطنه الام ، كما تحدث على ذلك العهد كثيرون، تفتحت لهم الآفاق يرونها رأى العين، يرون التقدم فى المسيحية التى آمنوا بتعاليمها ، ولا يجدون سبيلهم اليه ، لا نصيب لهم فى هذا التقدم ، بقى اهلوهم على الذى كانوا عليه من عيش غليظ قاس ، يرقبون الغرب يمشى لليسار والرفاه على ظهـــور السود والسمر والصفر فكتبوا فى حنين لعقائد اسلافهم التى تركوا وراء ظهورهم وماجنوا شيئا مما وعد المتقون من مساواة وعدل . استمع لواحد من هؤلاء يتألم فى لوعة لماض ما عرفه :

اسمع اصداء الطبول تدعونى ، تعال .
اسمع دم ترم ، دم ترم فى وضوح اتبين .
وأرى فى الطبل ، وفى الزمر ، ماض افتقده
قيم اعيشها لا تنتمى ، لم تتمنى
لسانها غير لسان عترتى
وهو لسان انكره .
خبيث دعانى لطيب ويدعو
عقيدة خيرة نظيفة لكنها لخير غيرى
نظافة ، قذارة ، تنافر . . .

قل ، كما قلت انا أول قرائتى لمطلع القصيدة ، انك لا تفهم عن الشاعر تمزقه ، لكن امض بنا قليلا ، سيتضح لك حنينه لماضيه ، ابتلعه حاضره لا يأباه فى الحق ، لكنه مبعد عنه محروم .

أرضنا تهتز حولنا
وحوتها جماعة « تحكرت » عل المخامل
تمشى الطريق كله وتذرعه
نحن نمشى فى حياء
نحاذر غير شىء ، نخاف ، نستحى
نمشى على أطراف القدم

حربويات
لا سبيل غيرها كيما نعيش
فوق أرضنا التى كانت لنا
لا نعرف حتى كيف نعتدى
على الذى اعتدى
نخاف نستحى
أرهبنا طواع غيرنا
نحن حرباوات
فى كل جارحة فينا فزع
تحوطنا المهالك
ام لا تحوطنا يارب ؟
ومتى تجىء ، كيف ، لم
ونحن لا نقول ما نريد
حتى شواطىء البحار عندنا حييه
تخاف ترتطم ، لا ترتطم
انهارنا كبيرة لكنها تخاف
نسيت مع الزمان كيف تهدر
مهالك الصمت فى حقولنا ترن
يحول دونها والخضرة المبينة
صمت مروع ، حقولنا صورة
وكلنا مهلوع .

إن اكثر ما يكتب الافريقى المسيحى هـــذه الايام قريب من هذا ، لايرى الجنة التى وعد المتقون . لايرى ماقاله القس فى الكنيسة . يعود من أجل هذا لماضيه ، أقاصيصه ماثلة بين عينيه ، أصدقاؤها فى قلبه – سرائح منها تعيش غير بعيدة من عاصمة ذات اضواء والـوان ، أبوه هناك وعمه

وخاله ، يتحدثون عن البديع الذى كان . ماض يسحره بعيد عن حاضره ، الذى يخيفه من القابل ، ماض لايحب أن يعيشه ، كان مزيجا من السذاجة والفاقه والخشونة لكنه يحب أن يستعيده في وجدانه لأنه يربطه بمرفأ ، يعينه على استعادة هيبته إنسانا مع الناس ليس بضعا من شجر الارض وحيوان الغاب، لاتاريخ ، لاحضارة لا ثقافة .

واحد من اسياد هذا الماضي البعيد ، كنياتا . يقول كلمات طيبات حتى عن بعض مظاهر فى الحياة القديمة ينكرها عقله وعلمه وتتغنى بها عاطفته . غريزة التحدث للرجل الأبيض تدفعه لأن « يعلل » سيئات فى الحياة القديمة يختارها إختيارا يرى فيها فضائل لم يرها غيره من قبل ، ولا يراها هو أكبر الظن ولكنه يريد ليغيظ . اهدى كتابه « لقاء جبل كينيا » الى « موبقواى وأمبى ، الى كل من ذهب دمه هدرا فى افريقيا ، الى من نهبت ارضهم نهبا . أريد لنا واثقة مع الاسلاف لتكون ارواحهم الراحلة معنا ، فى نضالنا لتحرير افريقيا . يدهم فى يدنا . ايدينا جميعا معا ، الحى منا والذى راح والذى فى الغيب ما جاء بعد. لتنضم الايادى يعزز بعضها بعضا لنعيد بناء الذى خرب الواغلون ». وما كان طالب مجد لايدفع ثمنا كنياتا . ولد بانياب ويعيش حتى فى مغيب عمره هذا « موزى » عم كل الناس من بيض وسود ، وكان قبل سنين قليلة مضت « قائد الناس للظلام » فى عين البيض الذين مافهموا عنه ، وشرعوا يتعلقون به حين رأوه كبيرا على الصغائر ، ويعفو عن خطايا الذين ارهقوه صبيا وفتى وكهلا ، مارحموه . رأوه مؤمنا بان المستقبل القريب لبلاده رهن بعلائقه الطيبة مع جلاديه القدامى ، فما اكتملت لها قوة الوطن الواحد .

اخـــذ عنه العودة للماضى البعيد كل جيل بعده . نكروما الذى عاد بوطنه ليوسف بن تشفين والمسلمين من البربر واسمى بلاده غانا ، وأخذ عنه هذه العودة جيل بعد نكروما ، جيمس انقونى ، نكروما ٥٩ سنة وانقوقى ٢٦ سنة وبين الاثنين ثلاثون عاما وتزيد وكلاهما نذر نفسه للنهضة الثقافية ، رائدة الثورة الشاملة ، ذاك كان يجرحه الذين يأبون للشخصية الافريقية ان

تجـــد مكانا بين الناس ، وهذا يتلمس الطريق على النحو الذى فعل كنياتا ونكروما قبل جيلين وجيل . جيمس انقوقى فى شـــرق القارة شـــبيه بلداته فى غربها ، شنوا اشيبى ، فى نيجريا منقوبتى فى الكمرون ، كامارا لى ، فى قنى ، فنانون قلمهم يصور الذى يرون بعين الذى يفتنهم العمل كما يفتنهم التصوير . بينهم مع هذا فئة من الشباب المستنير لا يستطيع غير أن يغضب ، ذاك لانه يكره أن يضيع وقتا يحلل مايأتى ومايدع الناس . العبرة بالخواتيم لا الاحاديث . هذه هى الفئة التى دعت الكنيسة افريقية تناهض الاستعمار ، عوض كنائس البيض جعلت الدين خنوعا للانسان الاوربى ، وكان افراد من السود الامريكان ، ماركس جارفى على رأسهم ، قد نادوا أواسط القرن الماضى بكنيسة اثيوبيا وقد خذلتهم كنائس البيض . نادت هذه الفئة من الشباب المعاصر بكنيسة تأخذ بشطر من حضارتهم الافريقية لأنهم عرفوا نهاية المطاف مـــكان الحضارة والثقافة فى دفع الانسان امام . ولم تصب هذه الكنائس بعض حظ ، فما كان ممكنا لها ان تقـــارع كنيسة ذات حول وطول وسند .

ماكان غريبا ان تقوم الدعوة على اكتاف الشباب فى الجامعات والمعاهد والندوات. خرجت صحيفة « تام تام » التى يصدرها الطلاب الافريقيون المتحدثون بالفرنسية تقول فى أول عدد لها انها تصدر لتحمل قراءها على الايمان بأن الكنيسة الاثيوبية (يعنون السوداء) ليست عملا من أعمال الملحدين . انها تؤمن إيمانا عميقا برسالة السيد المسيح . ثم تحدثت الصحيفة عن رسالتها فى هذا الصدد ، وقالت انها تصدر لتلبس تعاليم المسيح العظيمة ملابس افريقية وليس لمؤمن أن يخاف على ايمانه « إنا أيضاً مؤمنون » . على الذين يريدون للدين المسيحى ان يجد سبيله سليماً لقلوب الافريقيين ، أن يعترفوا بأن الضمير الافريقى ليس وعاءا فارغا ، يملونه بالذى يريدون . على المسيحية أن تلتقى بالحضارة الافريقية ، التى هى عماد قوميتنا التى نعمل لها . لن يثنينا عن الثورة فى سبيل القومية أحـــد . سنخوضها بكل الذى نملك ، إن وقفت

المسيحية معنا أو لم تقف . اما مسيحيتنا نحن فهي في قلوبنا لا في معابد البيض.»

سيعجب الذين التقوا ببعض الشباب الذى عمل فى الحقل السياسى بعد الاستقــلال ويتساءلون كيف وقف اكثر هؤلاء بجانب البيض فى المنتديات العالمية ، على نحو يدعوك للقول بأنهم لايمثلون هذه النزعة للكرامة الافريقية والذاتية السوداء ، وتعليل هذه الظاهرة لن يشق عليك . سجن الوظيفة دعا اكثرهم لهذا ، وإقتدار غيرنا على عرض باطله سبب وعجزنا عن البيان عن حقنا سبب . حملت هذه العوامل بعضهم على يقين لا يلومهم عليه عادل ، وقلة قليلة مفتونة بأوربا وامريكا ذهبت مذهب هؤلاء لأنها تعرف عن حضارة وثقــافات اوربا وأمريكا ، اكثر مما تعرف عن افريقيا ، وقر فى ذهنها انها ضئيلة والابيض العملاق لاينطق عن هوى حين ينطق .

هذه كانت سبيلهم أول الامر ، وما كانت كذلك سبيل اهل الحس والفكر ممن اتخذوا الكتابة وسيلة للتعبير عن الذات الافريقية وأعرضوا عن سجن الوظيفة ، وكانت مشقة العيش لاقبل لاكثرهم بها ، لكن الصابرين من أولى العزم ، وجدوا فى الكتابة مايعيشهم ويغنيهم عن الجاه فى السياسة ، ذلك لأنهم كانوا مطالع الخمسينات واوائل الستينات يكتبون بهدف ، ولولا خشيتى أن تكون قد قرأت ما كتب عن نفسه شنوا اشيبى فى الصفحة الادبية فى مجلة نيوستيتسمان قبل أعوام لوقفت عند رؤيته نفسه « معلماً » أداته الرواية ، لكنى أحسبك وقفت عند حديثى عن القس براون وخيبة أمله فى عمله حين تصديت للرواية التى أذاعت صيته أشهر روائى افريقى ، أعنى روايته الاولى « وتداعت الاشياء ». أريد لاخلص من هذا الى أن الاستقلال الافريقى اعطى العالم المعاصر فئتين تهدفان لشيء واحد ، وتختلف السبيل ، الساسة الذين كانوا يحرسون ذاتية افريقيا وفق مايخيل اليهم ، وأهل الفكر الذين حرسوا الذات الافريقية لا يعنيهم شيء غير تلك الذات ، ويسترعى انتباهك ان هؤلاء جميعا التقوا مهما تفرقت دياناتهم . جميعا الغاية واحدة . الطرائق شتى .

سيسترعى انتباهك هذا اللقاء فى التعبير عن الذات الافريقية عند المسلم

والمسيحى من أهـــل الابداع فى افريقيا ، لكنك لن تجد فى الذى يكتب المسلمون كثيرا من العناء الذى تحسه فى الذى يكتب المتنصرون . رأيت فى الذى يكتب عثمان سوس واحمدوبابا أن ايمانهما بالحضارة الافريقية والثقافة الزنجية، يعيش جنبا لجنب مع ايمانهما بكل شيء يمثله الاسلام عندهما. ماهكـــذا العقل المسيحى ، منقوبتى الساحر الذى رأيت وشنوا الذى عاش ماضى قبيلته فى رواياته الاول كلاهما يحس تمزقا على كـــره منه . بين المثال والواقع هوة . اكثر الناقدين للابداع الافريقى لا يرون هذه الهوة فى الكتابات الاسلامية فى القارة وكتبوا كثيرا يبحثون عن سر هذه الظاهرة . أما رصفاؤهم الافريقيون ممن كانوا يعيشون هذه الفجـــوة صغارا فى مدارس التبشير ، يأخذون عليهم طمأنينة وسلاما ودعـــة ماهناك مايبررها فى الذى يرون فى الصراع المحتـــدم بين الابيض والاسود . قالوا انهم لايعاركون الاستعمار كما يعاركون هم فيما يكتبون .وما كان كذلك الامر ، فى زعمى . خلط الناقدون بين ســـلامه فى وجـدانه وايمانه بنفسه وباهله وقادته ، وبين مايعترك فى قلبه ومايحس ، وأريد لنا أن نقف الآن عند واحد من الافريقيين المسلمين نموذجا لمن فى قلبهم الرحمن .

نقف عند كمارالى . ما إرتاب واحد من قارئيه أو نقاده فى أنه فنان ، لكن بعضهم عجب له يكتب قصتيه الكبيرتين منتصف الخمسينات والنار مشتعلة فى القارة ضد النفوذ الاجنبى لم يتصد لهذه النار . لم يصور قبح ذلك النفـــوذ وعاره . رأى هؤلاء الناقدون مارأى السابقون فى روايات جين أوستين . ماأشارت فى الذى كتبت من روائع إشارة تنم على انها كانت تعيش غليان الثورة الفرنسية . بعيدة لا تنالها الاحداث حولها والكتابات . لاتمسها . خيل للنقادين أن كمارا كان يعيش بمعزل حتى عن سيكتورى ، الذى كان ينادى يقول : لا قيمة لعقل الفنان والكاتب والمفكر والباحث والمثقف ، إن لم يتصل إنتاجه بالذى يعانيه أهله . لا قيمة لعمل فنى ، فكرى ، ثقافى ، أو بحث ، إن لم يرتبط إرتباطا بالآلام والاشواق فى الاقليم الذى اخرج

للوجود ذاك المبدع. الابداع إن لم يكن قطعة ، صورة من آمال واتجاهات الاهلين ، لايستحق اسمه . » لااعرف إن كان كماراً قد وقف عند هذا الرأى أو لم يقف ، ولا يعرف الذين كتبوا لنا عن جين اوستن إن كانت فى معزلها البعيد ذاك فى يوركشير كانت تقرأ ادمند بيرك واخصامه عن الثورة الفرنسية ، لكننى لا اعتقد أن كمارا كان بعيدا عن وجدان قينى وهو يكتب « الطفل الاسود » . لا يسعك وانت تنتقل مع كمارا من موقف لآخر فى الرواية الا أن تذكر ايام طه حسين بذخرها كلها ، بالشعر فى السرد ، والمعنى الذى يحمله لك ذلك الشعر . بخلاف اقتضاه الاختلاف فى البيئة بالطبع ، واقتضته موهبتان تعالجان مواقف لايربط بينها كثير واقتضته لغتان ، تختلف عبقريتهما اختلافا غير قليل . مثلا ، ترى بعينى بصيرتك فى رواية « الطفل الاسود » حنايا افريقيا الخفية وتعرجاتها ، تحسها لا تستطيع أن تعيد بناءها فى ذهنك على النسق الذى بنى كمارا ، اطياف لا أجساد . لو كنت اكتب عن رؤى الفنان وقدراته على تصوير تلك الرؤى لقابلت بين كمارا وكافكا ، لكننى معنى بالفحوى الاجتماعى السياسى فى بحثى لا بالاداء الفنى . ترى الاطياف هذه تختلط اختلاطا بسبحات الاسلام ، بينه لا تخطئها العين الدربة ، والاسلام الافريقى تحور من مظاهره ، كما رأيت فى الذى قلت من قبل ، ليتسق والقيم التى كانت هناك فى القارة قبل مقدمة ، لايخرج جوهره عن طريقه وتحول دون ماهو غير انسانى ، على النحو الذى فعل فى الجزيرة العربية ، حين أبى أن يئد القوم البنات وأن يعبدوا اللات والعزى . ماكان الاسلام فضوليا يمنع الافريقى افراح موسم الحصاد مثلا فى « الطفل الاسود » . تلتهم الافراح التهاما كما فعلت أنا حين رأيتها بعينى عندنا فى قرى جبال النوبة . وامتعت بها كما لم امتع بشىء ، وشبيه بهذا افراح الختان ، يصور كمارا هذه الافراح صورة لا تبعد عما الفت قرانا فى السودان ، يختلط صراخ الرجال . . أبشر أبشر . . . بزغاريد النساء يلو لو يو لو ، يذهلون الصبى عن وجعه ، يغرقه الصراخ تدغدغه الزغاريد ، فى مشاهد وأنغام لا يتاح تصويرها الا لمسلم

افريقى ، نتاج مزيج الحضارتين والثقافتين الافريقية والعربية الاسلامية. ماسعت الحضارة القادرة ذات التجارب لتطغى على تلك القديمة ، امتزجت بها فكانت حضارة فريدة مميزة ، لا هى هذا ولا ذاك ، تثرى نفسها بالعربية والاسلام من ناحية ، وتثريها الفرحة والضحكة الافريقيه الطيبة الذكية من ناحية .

« الطفل الاسود » رواية تستحيل على غير مسلم أفريقى أن يكتبها ، قدراته الفنية يزينها ذاك المزيج الكامل المتكامل بين ثقافة القارة الاصلية ، والاخرى الذى غيرت وجهها منذ ان جاءت من الشمال يحملها البربر والعرب والثالثة التى أتت بها فرنسا ، وانطقت بلسانها القادر هذا المزيج الذى ظل يتأرجح لا يبين عن نفسه حتى أتته هذه اللغة التى اتاحت لكامرا ان يكتب « شعاع الملك » التى يمكن لها أن تقف مزهوة جانب كافكا فى « المحاكمة » وقولدنق فى « الذباب ». كل من فى هذه الرواية ينزلق بين اصبعيك ، حرير ، طيوف ، لا عظام ولا لحم تضحك أحيانا حتى ليحسبك اهل بيتك جننت ، فرط ماتستطيع الا أن تضحك ، ويحسبونك فى اللحظة الاخرى ذاهلا عما حولك ، فرط ماتستغرق تريد لتدرك معنى بعينه للعبث الذى يلغ فيه شخوص الرواية ، والاطار الفنى الذى فيه يتحركون ، ولا أذكر أن رواية فعلت بى مثل هذا ، منذ « رحلة الحجاز » ، اعبث ماكتب المازنى فى عبثه . كلارنس مثلا . إنه اوربى يضيع فى متاهات مجردة وغير مجردة يخرج من زقاق فكر وحائط مسدود لآخر ، لانهاية له ينتهى عندها ، ويقف فى ساحة فكرية وتل يستنشق هواء نديا يلهث ، ولكن وقفته لا تطول . يرجع لاشباه ماكان من أزقة فكر وجدر يحتويه هبل الغريب لايفقه مايسمع ويرى فى حياة افريقية صنعها صنعاً خيال كمارا ، كما صنع كافكا ازقه المصرف لكاتب .

ولست وحدى الذى حار فى الذى اراد كمارا فى قصته هذه الثانية . رآها كثير من الناقدين ، كل بعين ، ولا اذكر اثنين اتفقا على تفسير مارأيا ، وإن كنت مغرى بالذى قالته استاذتنا الودودة آن تبل ، تسعى لترى هذه الاطياف معانى يحسها الواحد لايكتفى بأن يمتع قالت « انها رؤية للحكمة ، كما بحث

عنها السود والبيض ، كل على نهجه عبر السنين ، ويبحثون الآن . عجزوا أن يصلوا نقطـة يريحون عندها ذواتهم المكدودة . الناس يـدركون فى دمهم أن هناك صورة للحكمة ، ولكنهم لم يعرفوا بعد أين هى ، مامداها ، مكانها ، مقامها . من يدرى هل أراد كامارا ، أن يقول لنا نحن اللاهثين بحثا عن الحكمة ، إن اقنعوا بماتعرفون . انتم اعجز من أن تصلوا طمأنينة تسكنون اليها . عبث ، كله سراب . »

لقد قرأت السيدة آن بحساسيتها ، وحبها الذى لا ينقضى لكل ماهو عربى وافريقى . لكنى رأيت غير هذا . كان خيالى ، وهو يجنح اكثر الوقت لتجسيد الرؤى والفكر ، يخلقها شخوصا وشجر ، يرى كلارنس نموذجا للمئين من للشباب الابيض التائه فى دهاليز كمارا . دهاليز كمارا هى افريقيا . يطوف أر كانها كلارنس يبحث عن سلام ، أضاعته حضارة خوت من كل معنى مريح ،فيما يقدرون . رأيت كثيرين . شعورهم مدلاة على أعناقهم ، ذقونهم كالمخالى على الصدور ، فتياتهم جنبهم فى ملابس مهملة بعناية ، يبحثون عن هدوء النفس الذى يفتقدون فى عواصم أوربا وأمريكا . يريدون نسمة من الطبيعة ، خضرة آمنة من دخان المصانع والحافلات ذات الصدع . وترى غير هذا الشباب . قال لى روبرت أودرى أمسية العرض الاول لفلمه الخرطوم

— انتهيت الآن ، شكراً لله .

وكان جذلا فرحا يفرك يديه قلت : « مم ؟ »

— قال : من هنا . غداً أعود للكنغو .

— قلت : ولم العجلة ؟

— قال : أنا أوثر رفقة الافيال والنمور .

وأودرى ليس واحداً ممن تتدلى ذقونهم أو يرفضون مايرون . كاتب جاد ، لايمس الهذر بعمود ، لا يألفه . عاد من الكنغو بعدها بسنة فى حقيبته كتابه عن العنف عند الانسان والحيوان ، وأثار من جدال ومن اعجاب ودهشة ،

لكن أشباه أودرى قلة ، وأشباه كلارنس كثرة . عاد هؤلاء لبلادهم وقد هالتهم الحقيقة . يورومريكا – كما يعبر علماء وصف الانسان هذه الايام ، حين يجمعون بين أوربا وأمريكا جناحي الحضارة الآلية ، ليست تعبيرا سياسيا فحسب . يروامريكا تعبير ثقافي وحضارى ايضا ، وقد عدا هذا المزيج من أوربا وأمريكا – حدوده الجغرافية ، وفاض عبر الحدود التي أقامها الانسان حوله وعبر السدود . فتنت الشباب كل مكان ، وبعض الكبار ، استحوذت على جوارحهم ومظاهرهم . بعبارة اخرى ، تعرت القارة لهؤلاء الذين أتوها ينشدون الملاذ من أنفسهم ولو لحين . حسبوها بمعزل عن ثقافتهم وحضارتهم تلك اسيرة الدخان والنار ، حبيسة التلفزيون والاعلان ممن يبيعونك مالاتحتاج ، دعاة السلع ، أية سلعة . ثم رأوا القارة الافريقيه بعينهم لابعين الذى قاله المفكرون والكتـــاب : رأوها مسخا من الذى أبوه ، جاء الصراخ والخواء عبر كل حاجز من العنصر والغاب والثقافة القديمة التي بشر بها العاطفون . رأوا الانسان الافريقي « عفريته » صورة من الانسان اليورمريكي .

وما كانوا « دراويش » من رأيت من شبـــاب وصبايا ، الا أولئك الاحاد الذين تراهم فى كل مجتمع . تعرفوا على صفوة افريقية ، كانت «تشابى للنجوم» وقنعت بأمنا الارض. كانت هذه الصفوة أيام النضال للاستقلال عقب « وثيقة الاطلنطى » تقول «آه» ادركت نهاية المطاف بركب يورومريكا . قيم الوثيقة هى عين القيم التى دعونا لها . حدثتهم انفسهم أنهـــا هى التى دعو لها سنين ، وكانت آذان الاوربيين فى صمم حتى غشيت حضارتهم الغاشية. ستسمع صوتهم الآن . ثم ذهبت هذه الصفوة تحدث نفسها انها ستأخذ من يورومريكا قدراتها الآلية . وفى الصباح جاء النذير بواقعه الذى ماستطاع واحد منهم أن يقاوم . عرفوا أن الحضارة اليورمريكية وحدة يتم بعضها بعضا ، لا أشطار . ان درب بعض قومك على البرادة والحدده وفلق الذرة والاستعانة بالحاسبات الراصدات تحرس لك حتى ذاكرتك داخل صندوق بزر ، لايمكن لها الا ان تجىء مع اللباس القصير والعيش فى المدينة ، تجيز ما لا يجوز : اللواط والاجهاض ،

ونسيان ما خلفت وراءك من قبيلة كانت تريد لتعتز بالذى تحمل من خيرات المدينة للأب والأم والعم والخال والعمة والخالة والاقربين فى الجيرة . عرفت الصفوة الأفريقية فى الاربعينات ومطالع الخمسينات انها رمت لما لا تستطيع أن تصيد ، ولقيها الهاربون من جحيم الحضارة اليورومريكية ، فعرفت هى أيضا بدورها انها وهم كانوا يعيشون بمعزل عن واقع لايريح . دنيا ماركوس ومكلوهن . عادوا يحملون ذقونهم وعصيهم لحيث أتوا وفى قلوبهم عاطفة لافريقيا وخيبةأمل . عادوا لقرنتش فى نيويورك وشلسى فى لندن ، لحشيشهم وخمرهم ونســـائهم وعيشهم الذى يؤثرونه ويأباه مجتمعهم الاكبر ، ينتج بعضهم انتاجا فنيا ، يقهر الرافضين على الاعتراف به ، فرط جدته ، ويموت انتحاراً بعضهم ، ييئس من مواهبه ، أو استرقته المآسى والفواجع ، فرط مايجد من فجوة بين الذى فى الذهن والواقع اللئيم .

لنعد لكامارا خالق كلارنس ، مبدعه . كلارنس الذى طوف بنا نيويورك ولندن فى قرنتش وشلسى ، ولو لم يكن على عجل لطوف بنا امستردام واحياء باريس ذات الضوء والعهر والعلم وكل الذى ينكر الاقدمون ويحتضن المحدثون . لا يجيئن فى بالك ، مع هذا ، أن كلارنس هذا ، الذى اتحدث عنه هـــو الذى كان فى ذهـــن كمارا . هـــذه الخواطر التى ســـقت هى خواطرى انا ، لا اجزم انها كانت خواطـــره . أن الذى بينه وبين من يقرأونه هو الذى كان بين المتنبى « ينام ملء جفونه » وقارئيه يسهرون الليل يختصمـــون ، وبين رتشـــارد سن الذى قيل أن شكســـبير الو بعث حيا لما عرف الذى يقول هذا الناقد عن رواياته . كمارا فنان من رأسه الى اخمص قدميه ، كمايعبرون ، شق ماانفصم عن حضارته الاسلامية ، افرقتها عبقرية القارة ، وثقافته الفرنسية ايضا افرقتها عبقرية القارة ، وهو يرى آفاق وراء حاضره الذى يحياه ، ويعى الذى يدور حوله الآن ، والا ما استطـــاع تلكم الرؤية : المستقبل بضع من الحاضر ، جذوره فى السابق . تلامذة التاريخ هم الذين يقرأون عن ماض وحاضر وقابل ويظلون كذلك حتى يتقدم بهم الزمن ، ، يجدون التاريخ عند المعلمين عهودا وعقودا ، كل عهد

« غير مجرى التاريخ » وكل عقد كانت له سماته. ينجو من هذه النظرة التعسة « في فهم سيرة الانسان قلة ممن ينجون من مثل هذا التعليم. كمارا لى واحد من هذه القلـــة ، وكذلك اكثر الافريقيين المســـلمين فى كتاباتهـــم التى يكتبون ، وفى حديثهم الذى تسمعه شفاها منهم . الزوابع حولهم جميعا ، نصارى ومسلمين ورياح التغيير كذلك ، ولكنهم استجابوا لها على خلاف . استجابت الفئة المسلمة على نحو ، واستجابت اختها المسيحية على نحو. اساسة من الفريقين والمفكرون . قاد الفكر الحـــانق والسياسة الجارحـــة : المثقفون المسيحيون ضد الواغل المسيحى من بريطانيا وفرنسا والبرتغال وقلة قليلة من المسلمين . كبير القوم كنياتا ، حالم القارة نكروما ، حكيم الشباب نيريرى ، سيد المؤمنين بالانسان كاوندا ، نبي الوطنية لا حكمة تعقلها ولا رفيق طريق يعصمه لوممبا ، كلهم حانق غاضب. مع هذه الكثرة سيكتورى ، صانع قينى ، صانع نفسه ، وموديبو كيتا الذى ولدته أمه باضراس ما كان ينطق قبل أن يدير الرأى مرات ويختار الكلمة . كانت الفئة الاولى ومن تبعها أوائل الخمسينات واخرياتها ، قلقة جازعة ، بينها وبين الواغل الاوربى حب / بغض ، تريد أن تسترد عزتها منه ، وتريد عين الوقت ان يكون ذاك الواغل قريبا ، لا تتصور العيش دونه . ماكان هكذا المسلم الافريقى . كانت هذه الفئة فى أمان مع نفسها ، لا انفلاق ، لا مرارة ، لاحقد ، لا حسرة على ايمان .

ماخبر هذا الانغلاق المسلم الافريقى ، انه سلف لخلف خاضوا معارك الاستقلال من قرون وخسروها بحرابهم وسيوفهم وشجاعتهم لقوم كانوا يضربون بالرصاص ويقاتلون بالختل . زرع الآباء والامهات فى وجدان كل صبى وصبية ، عزة تريح قلوبهم المجروحة ، والتاريخ فيما يقول واحد من سدنته باركلف « عاهرة نستأجرها . . تخدم القضايا الطيبة والقضايا الخبيثة . . عاهرة تكذب علينا حتى ينتهى تساؤلنا » يعنى الاستاذ الكبير ، انك يمكن لك أن توحى لاحداث التاريخ ماتريد . حقائقها ميتة ، أنت الذى تحيى موتها والذى تحييه يكون طوعك ، بالذى تأمر يصدع . للمبشر فى المدرسة رؤيا وللأم

والاب في البيت رؤيا ، لكن الذى تسمعه فى بيتـــك أبقى ، لأنك لاتسمعه لتجلس آخر العام تعيده من الذاكرة للورقة . تسمعه فحسب ، يدخل وجدانك يبقى هناك . هكذا عرف المسلم الافريقى عن ضراوة تلك الحروب ، وعن الذين ماتوا مثين يصرخون فرحا انهم « مجاهدون » فى شأن الله كما يقول كتاب تاريخ القارة . يقر فى وجدان المسلمين انهم احفاد فئة ماعرفت الخوف من الموت ، فالموت انتقال من دار لدار ، وضعت السلاح قسرا ، وأسلمت مقهورة غير محقورة ، واوربا القادرة على فنون الحرب الجديدة ، تعرف مكانا مميزا للاسلام والمنافحين عنه ، تعرف ان الذى اقتحموا مدافع الغرب بالحراب والسيوف ، اهل لاحترام وان اخلافهم اهل لقيـــادة .

ما قعد المهزومون يتحسرون لدى الهزيمة أو يلوم بعضهم بعضا يتمزقون. مشوا نحو الانسان الاوربى حين فاقوا من الهول فئة ذكية ، تعمل معه تتعلم فنونه ، تعد انفسها ليوم احمر . قبلت هزيمتها ليوم بينها وبين نفسها غير معلن ، ورأت انها تسير مع منطق التاريخ ، يوم لك ويوم عليك . بجانب هذه الفئة الذكية كانت فئة صامدة . كرهت هذا المنطـــق . رأته غير جدير بالآباء والاجداد . رأته خنوعا ولاذت بهضابها وصحاريها تقاتل ، وماتت باسلة ، ودفع ثمن البسالة الابناء والاحفاد ، ذلك لأن الاوربى حين استقرت به الحال ، جعل من هؤلاء هدفا للعسف ، خشية ان تتجمع حولهم فئـــات من الناس رافضة لهم ، رغم قوتهم القاهرة ، ناصبهم الفاتحون العداء جهرة . ولوكنت اكتب تاريخا لسقت شواهد من بيت الامام المهدى عندنا وانصاره ، نفى بعضهم ، وذاق بعضهم الغربة فى الوطن ، ولحدثتك عن عرابى ورفاقه .

فريقان من المسلمين أمام الغرب الزاحف أخريات قرننا الماضى اذن . حذقة مهرة تعلموا وعلموا ، وغاضبون رافضون ، تركوا وراءهم جذوات متقدات ، اعطت الحذق حرارة والمهارة ضوءا والتعليم هدفا ، هو العزة . أحفاد الفريقين يشركون على أيامنا هذه اخوتهم المسيحيين اكثر الشئون ، ولايشركون بعض الشئون وليس هذا خلافا فى الهدف. انه خلاف فى النهج

تمليه ثقافة كل وحضارة كل ، فالمنابع تختلف ، طمأنينة تراها فى نفوس المسلمين ، لا تعرف الغلو ، يعيشون ازماتهم عيشه الفضلاء ، لايكرهون . اقرأ معي نموذجا واحدا مما يكتبون ، من نماذج عدة تراها فى مجموعات شعر بعضهم فى ترانزشن وفى اورفيوس . ابراهيم طاهر واحد من شباب نيجريا القادمين ، يشير الى ازمة سواده ، إلى العنصرية ، لا يذهب مذاهب المقت التى رأيت شيئا من نماذجها ، يصف الافريقى ، يقول :

يقفز ، يرفس ، ينط
ثم ؟ بس . لا ثم .
لاحول له ولا قوة
اكثر من هذا :
لايقدر احيانا يرمق كفه
تتصاعد انفاسه
يزفر .
ألم العجز .
لاحرب لاسلام
بل اعراف .
جلده سجنه
قلعة سودا
تغله .

أقابل بين الافريقى الذى تنصر فى الكنائس وأخيه المسلم وأسائل نفسى ، كما سألت غيرى . يجيء فى خاطرى أن المسلم ابن عز قديم كما يقولون وألم جديد ، يتعس ، لا يحقد . الحقد صغار يعيشه الصغار ، وأرى لقاء هذا هذا التفسير ان الشباب الذى تقف فى الكنائس ماهو باللقيط فى تاريخه . انه ابن عز ايضا ، ابن شـــاكا الذى عرفت قوة عزم ، ومنليك الذى عرفت سعة حيلة ، ومقنبولا الذى ارعب وارهب ، وغير هؤلاء ممن قارعوا

الثار بالرمح ، والعلم بالغريزة . ظنى هو أن احفاد هؤلاء ماطمأنوا لدينهم الجديد طمأنينة كارا وطاهر . هنا رابطة راضية ، وهناك رابطة قلقة . شعر طاهر لا يصدر عن اخيه الافريقى ، ابن الكنيسة ، اهتماماته لا تتصل بثقافة مكتوبة عمرها سبعة قرون ، تتصل بثقافات قديمة قدم الانسان على الارض ، كما يقول لنا ليكى الذى لا « يفتر » فى بحثه عن أصل الانسان ، جهلها المبشرون الاولون ، وتجاهلها المبشرون الآخرون ، يريدون لحضارتهم وثقافتهم المقام الاول والسيادة ايمانا جاهلا اكثر الاحيان ، يرضون ربهم فى الاعالى ، مافقهوا حتى كتابهم المقدس ، بل حفظوه ظهرغيب ، شقاوة عامدة بعض الاحيان ، ترمى لتخدم اهداف من يدفعون لعيشهم الخشن فى الغابات ، يمهدون السبيل لمنافعهم التجارية والاقتصادية احيانا يوحون للدافعين بتلك المنافع رجاء السخاء فى الدفع والبقاء حيث هم ، يمارسون نفوذهم على السذج ، والنفـــوذ شهوة فى النفوس ، العاجزون عنها يقذفونها بحجارة ، القادرون عليها يلفونها بالسوسن . كان من اثر هذا مارأيت من نفرة فى قلب من تنصر على يد هؤلاء أو أولئك ، ومارأيت من هدوء نفس عند من ولدوا فى بيوت دينها الاسلام . تكاثر الغبار على وجه حضارته وثقافته ، وتسرى مع هذا فى قلوبهم وعقولهم طمانينة ، تسربت اليها فى رضا كما قلت ، ما اقتحمتا بالاغراء حينا والارهاب حينا كما فعلت ثقافة يوروموريكا ، اوحت إلى الافريقى انه يحتاجها ان كان فى عزمه ان يكون انسانا بين الاناسى ، ماحفظت عليه من ماضيه شيئا به يعتد . احالته مسخا من الرجل الابيض ، حين فك اساره ، وجد نفسه فقد المشيتين ، وثار . ورأى الفجوة بين الذى يقوله القس ، ويعمله المفتش ، وكلهم فى العقيدة اخوة . احس الافريقى أن أخاه فى العقيدة قد خدعه ، أذله ، ماجال شيء من هذا فى خاطر المسلم الافريقى . خضعت حرابه وسيوفه ، فاسلم نفسه يتعلم ، أو مات زهوا وعنادا ، وكانت مشقـــة شاقة عيشته ، ان كان من أى الفريقين من المسلمين ، لأن النفوذ الاوربى ، كان حربا عليهما معا ، يهيىء للمسيحية ، املا فى ان يجد رابطة

بينه وبين الافريقي المعاصر ، واصبح ذات يوم اذا هما ـ المسيحي والمسلم ـ لايؤمنان به . كان المسلم يرقب يوما يخرج فيه الوافد على أرض اسلافه ، وجاء ذلك اليوم ، وكان المسيحي يعد نفسه ليوم يستعيد فيه هيبته. جاء النزوع للاستقلال عند المسلم والنصراني ، في آن .

اسلم الافريقي« المجاهد » حاضره لمن قهره ، وعينه في غده ، وتنصر اخوه فرحا بادىء الامر ، ممزقا بين دينه السمح وحملته البغـاة ، وتخدع كتابات المسلمين على أيامنا هذه ، توحي للقارىء العابر انهم كانوا يعيشون نضال الاستقلال في دعة. كما خيل للبعض في روايات كمارا الحق الواقع انهم كانوا يعيشونه في قلق يسائلون ، ثم ماذا ، الحرية آتية لاريب فيها ، لكن علام يقيمون قواعدها حين تأتي . لقد قام النفوذ الاجنبي على الاصلاح والاغراء والارهاب. ماهو البديل لهذه القواعد؟ تقرأ كمارا ، وتقرأ من يفسرون كمارا ، فيجيء في بالك أنه يبحث عن الاطار الفلسفي للحرية ، وليس بعيدا هذا الخاطر ، إن صح أنه جاء بالك ، ذلك لأن كمارا ذلك الغامض الذى ينام ملء جفونه حين يكتب ، ويختصم الناس جراها ، كتب قطعة واحدة حتى الآن بعد روايتيه ، أسماها « اسد اسود » يطوف هذا الاسد الاسود كما تطوف مخلوقاته الفكرية من ملوك وصعاليك واطفال وصبايا ، ولكن الطواف هذه المرة ينتهي بك الى ان هذا الاسد هو « الهادى الذى لن يضل أهله في قيني ، وأهله في القارة ، إن هم اصاخوا له ، تبعوه . إذن يصعد ، ويصعدون معه في حلاوة وجمال صوب الشمس ، الى مصدر الضوء العظيم ، نحو التقـدم في مهارتنا التي لا تقاس بها مهارات » .

ماكان كمارا غير واع الا بذاته المليئة بالرؤى والاشباح والدهاليز والحصاد والعمالقة السود والبرادين يبردون . كان يرى رؤى داود ديوب ، لكن باسلوبه هو ، حساسيته هو ، على بعد مابين الروحين في المكان ، هذا من السنغال وذاك من قيني ، وعلى بعد مصادر الالهام عند هذا وذاك : ديوب منتوج معاهد العلم ومنظمات الثقافة ، وكمارا ما كان قد عدا مدارس قيني

يوم امسك بالقلم . تلغرافجي اما كان سيدنا صالح عبد القـــادر واحدا ؟ أتحتاج لكساوى الجامعات لتـــكون ذلك الشاعر الرجل؟ دعنى اقدمك على مهل لهذا الذى انتهى اليه ديوب عن « مرارة مذاق الحرية » . دعنى امسخ لك بالتعريب اشطـــارا من قصيدة « افريقيـــا » اعدها معلماً من معالم الشعر الافريقى الملتصق بترابه . قرأتها بالانجليزية بادىء الامر ، وطمعت . أردت قربى اكثر منها ، فرحت للاصل الفرنسى ، أحمل معجما يعيننى ، وعدت للترجمة الانجليزية أسلم نفسى لفتنة الاثر الجميع تتركه فى نفسك القصيدة كلها ، لا أتملى كلمة ، أو بيتا . اقرأ لا أقف . سترى الذى أعنى ولا اجيد أن أقول ، حين تتملى احزانها الجزينـــة . والآن وقد مضت سنون على تلك التجربة ، اراها فى هدوء ، اضعها مكانها فى الابداع الافريقى ، اجدها — كما وجدتها من قبل — غير بعيدة مما يترك فى نفسك كمارا . لا استحى ان اعيد لذهنك ان الرجلين يصدران عن ثقافة واحدة ، وتاريخ شبيه ، لاعجب ان يلتقيا فى مقرن ، جاء كل واحد منهما من درب اختاره اختيارا ، يتفق وما فى دمه من قدرة على الخلق ، اغفر لى ، اطلت ، وانت ترقب ديوب . هاهو استمع اليه :

حدثينى افريقيا ، تكلمى
اهذه انت ؟
ظهرك انحنى وانحنى
ثم تصدع .
احمال الذل
على عنقك .
أذاك ظهرك ؟
أراه من بعيد .
انه يتململ .
اسواط ودم قان

وتصيحين نعم ، عند الظهر لجلادك
يجلد في الرمضاء .
يختار زمانه
يحب لك الرمضاء ، عذابان .
صوت خشن يسعى أن يهدر
لايهدر لكنى اسمعه يقول :
ابنى ايها الهلوع ، ياملول
تلك الشجرة . اتراها ؟
انها خضراء فتية . تلك الشجرة .
فخمة عزيزة فى عزلتها .
قريبة من شمس الظهيرة
نعم ، انا معك .
زهورها صفراء .
قل باهتة . اقول انها كذلك .
تلك افريقياك . افريقياك
تزهر ثانية وتنعش .
لكن فى أناة .
جلدوها ضحى وفى الظهيرة .
لكنها « سردبت » تعانى وتعانى .
النتيجة ؟
ثمارها مع الصمود توجتها
مرارة مذاق الحرية .

ماأردت أن تشقى كما شقيت أنا ، فتطوعت بفواصل أحسبها تعينك ، وما أعانني ديوب . ماوضع فى الأصل فاصله واحدة بين شطر وشطر . دفق الكلمات والاشطار دفقا تأتيك انغامها حين تلتقى دفقة واحدة ، نفسا واحدا

لاينقطع . دفقة واحدة ان قراتها كما اراد لها ان تقرأ ، وكما جاءته صورة وهو يهوم ، لكنى خشيت الا تجد سبيلها اليك ، فانا وانت الذين عرفنا الشعر اصدارا واعجازا وفواصل كلم ، شرعنا نعرفه اثرا متكاملا منذ سنين قليلة حين جاءنا السياب وعبد الصبور ، وعبد المعطر ، وستناالعزيزة ، نازك ، وغيرها وغيرهم من المجاهدين الصابرين ، على أذى من لاتطيق ولا أطيق شعرهم وإن شكلوه واعربوه ، ولاتطيق تيههم الماشى على رأسه ، لايرى حسنة فى الاعالى ، عيونه على الاسفلت ، اسود اطلح اشوه ، لا صلاح فى شعر ولاجودة فى رأى .

الحلة التى تتسم بها القومية عند المسلم الافريقى ، طمأنينة فى داخل ذاته تجعل منه وحدة متكاملة ، لاثنائية فى فكرة . انشغاله بمستقبل الحرية حين تأتى ، تحول دونه والانشغال ماض ذهب الا بمقدار ماكان فى ذلك الماضى من عجز ماتداركه الذين كان فى طوقهم أن يفعلوا . مثله كمثل من يقول ، تعال نتزع للبناء ، الحقد على الماضى مضيعة للوقت. دعنى ابين اكثر عن نفسى ، اقدم اليك ، ان اذنت ، غير الشعراء والروائيين . اريد لاعرض عليك عقل مسلم آخر فى حقل غير هذين ، يلتصق التصاقا أوضح — خذ بالك ما قلت أحسن — بالارض الافريقية . عقل اقتصادى حرفته الارقام ، متاهات كمارا وحسرات ديوب تعنيه ، لكنها لن تكون لن تستطيع العيش والازدهار ، الا ان عاشت القارة رضية ازدهرت وفرتها ، توفر لهم أن يذهبوا سبيلهم . بعبارة اوجـــز : لن يكون كمارا ولن يكون منقوبتى ولن يكون ديوب ، الا إن إستطاع أهلوهم ترف اعاشتهم باستهلاك ماينتجون ، برخاء اقتصادى هو ماعون الرخاء الفكرى .

كوامى نكروما أول قائد افريقى أسود رأى الاستقلال بشطريه ، السياسى والاقتصادى . راح المؤتمر الافريقى الثالث فى مانشستر سنة ١٩٤٥ . كان هناك والحرب الثانية تؤكد مكان الاقتصاد فى حياة الامم ، والماركسية اللينينية يحمله الارض الاربعـــة ، تحالف لاركان الغرب والشرق آنذاك ،

وماكان قد بلغ الثلاثين من عمره ، وهذه الافكار تسرى فى دمه ، تصنع ذاك الرجل الحالم عاش وجلا اخريات ايامه ، فى بيته غانا التى صنع . القلق الخائف فى بيته أضناه ، يتلفت يمنة ويسرة قبل لا أو نعم ، فحراب الحرب الباردة كانت تنوشه من هنا ، وسهام كبارالعمر ، كبار المكان ، فى افريقيا مصوبة نحوه ، ذهب للسياسة بكل جارحة فيه وعقل وعاطفة وأنسى فى زوابعها ماكان قد بدأ به . ماعاد العقل الاقتصادى الذى كان . عكف على هذا الجانب عقـــل مسلم ينظـــر لأمام فى أمل ، والخلف فى طمأنينة . أنا أشير لمحمد ضياء ، حبيس الجزيرة النائيه ، فى السنغال ، وكان ضوءا من أضواء بلاده يوما من الأيام ، لكن صديقه الأكبر رفيقه الأول على ايام استقلال السنغال رئيس الجمهورية الآن ، ليوبولد سنقور ، ترك الشاعر الحساس فيه ، للسياسى المصارع فيه ، وفعل فعلته ليكون بجانبه دودوثيام وأشباهه من الذيول والاذناب يعزف الذى يريد الرئيس من انغام ، لاالذى يرى هو من أنغـــام ، كى يحيا ، فى المنظر السياسى . يحيا حياة ظل ، لا حياة أصل . المهم أن يحيا . قراقوز بليغ .

من يدرى ، لعل لمحمد ضياء عودة . إن لم يعد ، لن يستطيع الذين حبسوا ضوءه ، خوف أن تعشيهم ناره ، أن ينكروا عليه أن اسمه سيرتبط بالنظرات الإقتصادية التى توجه افريقيا ، لأنه رآها قبل كل راء عدا نكروما ، قبل أن يصل الرئاسة ويحف به القلق . تتـــألف قوى البغض ضده هنا فى القارة وهناك فى أوربا. ضياء لم يعمر طويلا فى الحياة السياسية ليرى إن كان فى الوسع أن تخرج نظراته الفكرية عملا يحسه الناس فى عيشهم اليومى . خرج على الناس بكتابه « تأملات فى اقتصـــاديات افريقيا » عـــام ١٩٥٣ ، وخمس سنوات بعدها خرج على الناس كتابه « التعاونيـــات فى افريقيا » ، عاما كاملا قبل كتاب الاستاذ العميد دك عن « التجـــارة والسياسة فى دلتا النيجر ١٨٢٠ ـــ ١٨٨٥ » ، وثيقـــة جوهرية فى السياسة والاقتصاد وجدت طريقها كل مكان حين أطلت على النـــاس . وظل كتاب ضياء الأشهر

عن « الشعوب الافريقية والتعاون الدولى » الذى ترجم لكل لغة اوربية ، أكثر ما يلفت النظر الاوربى ويخيفه ، وذالك للنظرات الماركسية التى أوحت عليه فكره . كانت عيونه حين ذاك عالقة بالنجوم ، لاترضى دونها . ساق بين يديه نظرات ماركس وضعها فى خدمة افريقيا، بعد أن أفرقها . لا عالميه . أفريقيا فى غنى عنها وكانت تدعو لها أياد قديمة خبرت كيف تصل قلوب وعقول من يسمعونهم أويقرءونهم فى المحافل والكتب؛ لكن ضياء استعان بالاداة الماركسية حالل بها الفجوة بين الذى تملك افريقيا من ثروات ، والذى تعيش من فقر القرون ، والماركسية تربط الحال الاقتصادية رباطا وثيقا بالحال الاجتماعية ، وقدرها ضياء تقديرا ، أعانه على نظرته السوسيولوجية للوضع الاقتصادى فى افريقيا . ما أعرف تعبيرا عربيا يقوم مقام هذا التعبير أعنى السوسيولوجه العلم . الذى لايرى الانسان اجزاء منفطرة . يراه واحدا تتكافأ حاجاته ، وإن كثرت.لايغنى الطعام عن الوفرة ، ولا تغنى الوفرة عن العلم . سأوفر عليك وقتك أوجز لك نظراته الاجتماعية / الاقتصادية وإن لم يكن بها جديد يهز الارض .

تعرض ضياء فى كتابه الاشهر الى العوامل التى تعوق التقدم الاقتصادى / الاجتماعى فى افريقيا ، وعدد منها : سوء استعمال الارض ، الهجرة للمدن ، ضعف التعاونيات ، تزايد السكان بنسب مروعة بالقياس لما تنتج الارض ويبيع البائعون . يقع هذا فى بلاد ، ويقع العكس فى بلاد . ثم وقف فى فصل طويل من الكتاب عند الاعانة والتجارة ، بين يورومريكا والقارة . تعرض لهذه الشئون وغيرها عن الجمارك واتحادها بين دول القارة مثلا، عين الشئون الاقتصادية التى يدير فيها الفكرة قادة شئون المال والتجارة الآن ، ولعلك تقدر الذى أوجز لك عنه حين أضع بين يديك فى ايجاز مخل بعض رأيه :

نقد فى كتابه « الاقتصاد المعان » يعنى التقدم الاقتصادى القائم على الاعانات من هنا وهناك ، وإن لم يكن فى كل الذى يكتب يرفض الاعانة فى

المبدأ . يقرها . يقبلها مخرجا من الفقر والجهد الذى لايعود على الجاهدين بنفع . يجادل فى بعض فقراته من يقولون أن الاعانة استعمار جديد . منطقه هو، إن عزت التجارة ، لتكن الاعانة . ثم تعيد النظر الآن فى الذى كتب، تجدها النظرة الاصح عن القواعد التى ينبغى أن يقوم عليها الاقتصاد الافريقى. السعى الحثيث للتجارة تقوم مقام الاعانة فى وقت من الاوقات ، على الا تكون الاعانة قيدا والاتكون التجارة خادما لحاجات يورومريكا . كانت افريقيا تتحسس الدروب ذلك الوقت ، وكان الساسة فى شغل عن المحتوى الاقتصادى للاستقلال لا عتب عليهم لا مـلام ، لكن ضياء كان ينظر أبعد . دعا إلى الاقتصاد الافريقى ، وقال انه ينبغى عليه ان يبدأ فى الوطن الافريقى . على القارة ان ارادت معنى لاستقلالها ، أن تزيح الحدود الجغرافية التى وضعها الاوربيون لنفعهم وكبريائهم ، كى تتكامل وحدتها الجغرافية ، وان تزاح من بعد رويدا رويدا السدود السياسية . على الساسة ان يضعوا سياسات تحول مناطق الانتاج الكبيرة فى القارة الى وحدات بعضا يتم بعضا ، ينسقون ، يخصصون ارضهم لما تستطيع من انتاج ، لاينافس بعضهم بعضا ، كما كان الامر على العهد الاوربى . القوة الاقتصادية لا تستطيعها الوحدات صغيرة كانت أو كبيرة ، إن هى نافست بعضها بعضا ، كل على انفراد . الغرب عملاق وكذلك الشرق ، لن تقدر افريقيا التعامل الكفاء مع أى منهما إن ظلت اقزاما عـدة ، يقف كل واحد منها يحمل « قرعة » لدى الباب ، يستجدى التجمعات الاقتصادية فى أوربا واعمدة المال فى امريكا .

كتب ضياء هذا واللجنة الاقتصادية التابعة للامم المتحدة ما كانت تكونت بعد ، ماخطرت ببال . دخلت هذه اللجنة المنظر الاقتصادى الاجتماعى ، سبع سنين بعد نظراته التى اذاعها فى كتبه ، واتت منظمة الوحدة الافريقية خمسة أعوام بعد اختها هذه . حقائق تدلل على دعوانا بان المسلم الافريقى ، كان يحيا ليتمثل السنين بعد الحرية ، ما ارتاب فى انها قادمة . كان العمل القومى فى أوجه حين قال ديوب مارأيت :

تلك افريقياك ، افريقياك ...
تزهر ثانية وتنعش .

وحين يكتب ضياء يقف عند مرتفع آخر ، غير مرتفع الوجدان ، ينظر للقارة من مرتفع الثمار الحقيقية للاستقلال ، كانت الدعوة للاستقلال السياسى تظلل ماعداها من جوانب العيش . مره أخرى لا ملام لا عتب على الذين رأوا الاستقلال السياسى من خلال البيئة الأفريقية للرفاة الافريقى ثم حالت الحوائل دونه والحياة العامة . صدر سنغور كان أضيق من أن يسع واحد ذا رؤى ومكره السياسى كان أوسع . . اختفى ضياء ، فابتدأ حيث انتهى اخوة له كان الاقتصاد ميدانهم ، على عبد الله على ومحجوب ديوب وغيرهما من المسلمين في السنغال ، جددوا مبادىء دعوته ، يكتبون عن قارة تعيش « مرارة مذاق الحرية ». كان التفكير الاقتصادى الاجتماعى ، حساب الخسارة والمكسب ، جديدا حين عالجه ضياء هؤلاء علاجا منيرا ، وقد شغل الآخرون بالعمل السياسى ، وكان من سعد افريقيا أن ينصرف كل لما يتقن ومايرى انه ينبغى أن يكون . قوم يهدفون لامتلاك دارهم غدا وآخرون يعدون اثاث الدار لذلك الغد .

جانب آخر من جوانب التفكير المستقبلى توفر عليه المسلمون من أهل الفكر والعلم . اشير لذلك الجانب الذى يؤرق ليل الانسان الافريقى . من هو ؟ ماذا تيته ؟ من أين أتى ، إلى أين يسير ؟ يعالج هذه القضايا ذات الشعب واحد من الصفوة في القارة ، يكاد يوقف عليها حياته أو أوقف ، ذلك هو الشيخ انتا ديوب — والشيخ هنا اسم علم لا صفه لموصوف . اثار المؤرخ الاجتماعى الاول فى القارة اعجابا بكدحه وكده وقدراته العلمية ، وأثار عجبا لانه انتهى بدراساته نهايات ، ماسبقه اليها أحد . ينكر عليه المثبتون من سدنه التاريخ ، عباد كل مأثور ، نهاياته لانها — فيما يقولون — تقوم على مختارات بعينها من الوثائق ، يدفع عنها بكلتا يديه . كل وثيقة لا تخدم نهاياته التى قرر من قبل ، لا تستأهل عنايته . يأخذون عليه أنه يسوق بين يديه

العبارات والاسانيد ، التى تقوم حجة على ماحلم به فى البدء وأراد . لكنى لا أحفل بهذا . اكثر سدنة التاريخ يريدون لك أن ترصد الذى وقع يوم وقع ، لاتحس ، لاتفكر . تجلس على السور بين بين ، كأنك فى عرض ازياء لا دخل لك فيه . لاينكر الواحد قيمة الراصدين حراس الوثائق ، لكنى لا اعتقد أن هذا هو التاريخ كله . إنه شطر حقيق باحترامى ، لكنى احب لاقرأ فيه مارأى ، لا أقف عند النصوص سفنجة تمتص ثم تعود سيرتها الاولى تذيل . يظل الرصد جسدا لا حرارة فيه ، إلى أن يمسه الاحساس باليد الواثقة العادلة فيستقيم روحا وجسدا ، يمشى بين الناس ، ولعل الشيخ انتا ديوب كان ينظر بعين حذقة لاسلوب فيكو فى كتابة التاريخ وكراوتش ، وكلاهما لاتينى ، عاش قبل زمانه ، وإلى ادمندولسن الذى كتب خير ما أعرف عن نشأة الفكر الاشتراكى فى أوربا فى كتابه « فى محطة فلندا » مقتفيا اثار فيكو وكراوتشى .

سيشق عليك أن تؤمن بكل الذى قال شيخنا ويقول ، ولكن لن يسعك الا أن تقـــدر الحراوة التى تشيع فى قلبك وروحك . تقـــدره تقـــديرك المعرفة يسوقها الراصدون . تقرؤه بجوارحك كلها حين يقول مثلا «ستصدمنا المشاكل الثقافية بيننا وبين أوربا ، يوم نستقر هنا على قارتنا فى نطاق قومى ، قومى افريقى ، سيقودنا التصادم الثقافى للاستقلال الجميع المتكامل ، إن نحن حزمنا أمرنا ، على النطاق القارى ، لا على النطاق الوطنى المفرد » اسراف ربما . بين يدينا حقائق تدلل على أن الاستقلال الوطنى هى النزعة الآن ، الاستقلال القارى فى بال قلة من المؤمنين أخفقت جهودهم للائتلاف ، للاتحاد ، دعك الوحدة الذى يدعو لها المؤمنون بها ويحترقون . يغفل الشيخ انتا ديوب عناصر اخرى منها العنصر الاقتصـــادى ، حين يربط الصدام الثقافى بالاستقلال : لاصدام غيره . النزعة للاستقلال فى معنى من المعانى صدام ثقافات وحضارات ، وتطلع لامتلاك ما يملك الاجنبى من ثرواتك فى معنى آخر من المعانى . رأى الشيخ انتاديوب غير الذى رأى الناس منذ المؤتمر الاول لكتاب الزنوج فى العالم كله عام ١٩٥٤ فى باريس . قال « لن يعرف

لافريقى أين يقصد ، إن لم يعرف من أين أتى». للساخرين منه أن يسخروا . يقولون حكمة ما حاجة الناس للحكمة . تلال منها فى الصدور والكتب لا تحول دون حمق . لكن الشيخ انتا ديوب يمضى لغاياته ، يأمل أن تصل رسالته الناس يريد أن يخلق وعيا تاريخيا فى الوجدان الافريقى ، كالوعى الذى يحسه هو ، فهو واحد من المؤمنين ، يريد لقارئيه أن يؤمنوا بما يكتب لا ليقول للناس ، هاكم اقرأوا كتابى ، انا شاطر . يكتب لأنه صاحب رسالة مما قرأ وخبر ، ويريد للرسالة أن تصل . يخطىء من يحسبه حالما ساذجا . ليقرأ الواحد منا قولته ليرى افريقيا بعينه هو الذكيتين . « كلما قامت فى القارة دولة ذات سيادة ، على الذين بنوها أن يصبوها فى أيديولو جية تعرف أين تتجه ، ويحيطوها ، بكيان ثقافى قائم بذاته ، نابع من قديمه موصول بحديثه . إذن تكون دولة فيها الامان النفسى كدولة ، إذن يعيش افردها فى طمأنينة متكبرة ، لا أعنى تزهو ، أعنى لا تبرك لاحد ، وإن حدث الازمات حولها وتفاقمت . تعالوا نخلق دولا تعى بماضيها ، لتشيع فيها الكبرياء » ثم يذهب طريقا لا يريح المؤرخين الراصدين الحاسبين . يدعو لرؤيا للتاريخ غير الحساب والرصد يقول « تعالوا نهيىء للقارة تاريخا عاما ، بدؤه وختامه تاريخ قومياتنا المختلفة ، ، نسير من هناك للدولة الافريقية ذات السيادة كلنا معا ، شعوبا وقبائل وأديان . يلتقى الجميع عند نقطة نشركها ، وإن جهلنا : كلنا افريقيون عاش اسلافنا تاريخا ، لو لم تحل دونه الحوائل ، لكانت افريقيا شيئا مذكورا الآن » .

شطحات راء ؟ لا . انها تقوم على مقدمات نشر اكثرها فى كتابه « الشعوب الزنجية والثقافة » عامين اثنين قبل البحث الذى قرأة على المؤتمر الاول لكتاب وفنانى وعلماء وقسس الزنوج ، وهو البحث الذى نقلت لك عنه فى مطلع هذا البحث ، خشيت أن تقول شطحات حالم ، قلت لك ، لا ، قراءات عالم . كتابه ضخم ، يتنقل من حديث لحديث . أهم من هذا أنه يحشد فيه بعض الذى يعرف الانسان المعاصر عن الحفريات الأثرية ،

في القـــارة ، يعرض عليك بعض الذى كتب علماء وصف الانسان — الانثرويولوجيون — يعرج بك على الفلسفة الوضعية ، يقف عند الذى يعرف من تاريخ الانسان الافريقى ، يأخذ بيدك بعدها فى دهاليز مكونات العقل الافريقى ، القرآن الذى يعرف ، الكتاب المقدس الذى درس ، يضعهما مكانهما من التقاليد الافريقية ، كيف تأثرت بها كيف اثرت عليها ، ثم ينتهى من قراءاته هذه وخبراته لحقيقة ارتبطت باسمه هو ، وهى مكان تساؤل عند المؤرخين التقليديين ، يقرأ وينقب ويجد نفسه قد احاطها بكل فرع من فروع المعرفة . يزعم لك ان التجربة المصرية ، كل الذى نعرف عن حضارة مصر تنتمى لاصول زنجية قديمة ، قدم تلك الحضارة ، هى الجذور وحضارة مصر الفرع الاخضر فيما يقول . يدلل بالشواهد يقول « لكل افريقى أن يتجـــه نحو تلك الحضارة ، إذن تهديه هداية تشد من عزمه ، على النحو الذى فعلت الحضارة الاغريقية الرومانية فى وجدان الانسان الاوربى المعاصر . الحضارة المصرية القديمـــة هى مصدر الالهام للانسان الافريقى ، لا نها نبتـــه ، جذوره ، انها مبرر وجوده حضاريا وثقافيا ، إن أغفل هذا لن يكون ذاك الانسان ، إن أغفل الاوربى منابع حضارته وثقافته الاغريقية والرومانية ، ألفى نفسه معلقا فى فراغ ، لاقاعدة يجلس عليها يبتدع . هكذا نحن فى القارة . إن أغفلنا حضارة مصر ، نمتها حضارتنا ونمتنا هى بدورها ، ، بقينا على الذى نحن فيه ، لا قاعدة نقف عليها ، يبدأ يومنا امس فحسب حين جاءنا الاوربى تاريخنا بضع من تاريخه هو ، وماهكذا الامر . »

اكثره نهايات انتهى اليها ، وهو يعيد كتابه الموثق . قرأ له كل ما أتى طريقه فى نهم ، ترى من الصفحات وتتابع الرؤى والحقائق إنه كان يلهث ، لايريح نفسه بعض يوم ، تحمله فكرة توحى بها عبارة فى كتاب حملا لاهثا لاختها ، ويكتب لايجى فى باله أن قوما سيقرؤن ما يكتب ويقولون أنه كان . . . « يعد » ، يخلق تاريخا لافريقيا وما كان ذلك التاريخ الا فى ذهنه . ظلموا كاتبا تجرى فى دمائه كتب « ديدرو » واخوته من الموسوعيين فى

القرن الثامن عشر من تاريخ الفكر الفرنسي . يقيني أنه كان يدحض نظرة قال بها الاوربيون عن أفريقيا ، وهو لا يدرى انه يفعل . قالت النظرة إن الانسان الافريقي لايملك تاريخا جذوره اليه تمتد . إنه شطر من ظواهر افريقيا ، على الدارسين أن يدرسوه مع الشـــجر والغاب والبيئة ، إنه بيئته ، لا تاريخ له متفصل عنها .

ثم يعى الدرويش فى محراب تاريخ قارته ، يقدم بين يديه اسلوبه فى استقراء ما في القراءة يقول « لقد نهجنا هذا النهج لنعيد للانسان الافريقى وجدانه التاريخى » وكان غير بعيد مما قال . طوف بالمكتوب والمنقوش والمقول عن أفريقيا ، كما فعل مع شامبليون مثلا ينقل عنه « كان البيض فى قاع الهمجية السفلى ، يحيا جنب آخر الدرج من سلم الانسانية ، حين كان المصريون والسودانيون والنوبيون على قمة الدرج » ووقف لدى عالم الاثار المصرية أملنين ينقل عنه « لم تنحدر الحضارة المصرية من أصول اسيوية . انها تنتمى لاصول افريقية » وراح يعزز هذا الذى أشاع الفرحة فى نفسه ونفس كل أسود قرأه ، بالذى كتب فولنى الذى عرف بكتابه عن مصر والشام حين طوف القطرين ١٧٨٢ — ١٧٨٥ قال « أهل مصر وجوههم مليئة ، تخالها أول وهلة انها منتفخة ، وعيونهم أقرب إلى أن تكون جاحظة ، وأنوفهم اقرب إلى أن تكون فطساء وشفاههم كثة . إنهم خليط من الناس ، لا ريب عندى » ويصف فولنى أبا الهول من بعد يقول « حسبت هذه الظواهر الجسدية من صنع المناخ المصرى ، لكن وقفـــة فاحصة لدى ابى الحول ، أضاءت لى الطريق . عرفت. ذكرت وأنا أرعى ذلك الرأس الضخم ، والقسمات الزنجية ، عبارة اثرت عن هيرودتس الذى مانطق عن هوى فى كل الذى كتب . قال : انا اعتقد أن الكليشان مصريون ، إنهم سمر البشرة مثلهم وشعرهم اجعد » .

نهايات ارتفعت لها اهداب الكثيرين عجبا ، يتساءلون ، أحق هذا الذى يحمله لنا الفتى السنغالى ، أم هو شبه حق ، منطق مقتدر يقنع ، لايتصل بالواقع الذى الف المؤرخون المحدثون ؟ لكن الشباب الافريقى أقبل على ما

يكتب الشيخ أنتا يشيع فى نفسه الامن والطمأنينة ؛ انه ليس بضعا من شجر وغاب، انه انسان . وليس هينا أو يسيرا أن تقرأ كتابه هذا الذى ينتقل بك من موضوع لآخر ، يقسو على ذاكرتك وصبرك . يعكف صاحبنا على دراسته يرفدها ، ببحوثه الفاحصة يستقيها من تاريخ الفتاش ، وتاريخ السودان ، يخترع حضارة افريقية ماكانت لتكون لولاه ، ، فيما يقول شانتئوه ، ويعيدها مكانها الحق كما يقول حواريوه . لا يعدل شانئوه ، فى الذى رأيت مما كتب بعضهم . حواريوه يشق عليك ان تقول لهم كلمة عاطفة تتساءل . احتواهم الجذل صعروا من خدودهم بعده . لكن الشيخ انتا ماض يكتب ، لا يملك وقتا يرد اولئك عن سخفهم ، أو أولاء عن عبادتهم ذواتهم. هكذا قال لى ابن عمه اليون ديوب ، وهو يدعونى لواحدة من ندواتهم ، وندواتهم كانت عدة تلك الايام .

سيعدو الشيخ انتا ديوب عمر الرومانسية بعد قايل ، واكبر ظنى أن هؤلاء الذين يحفون به ، لن يكونوا جنبه حين تأتيه أزمات من لايفقهون . قدراتهم فى « دفن الليل » لاشباهه ، يخافونهم يعرفون انهم فى السباق النظيف يخسرون ، فى السباق الوحل يربحون ، وأرى حتى ساعتى هذه التى اكتب اخريات الخمسينات أوائل الستينات ، أن داود صيام واشباهه بيدهم امور السنغال وافريقيا ، والشيخ انتا لا تذكره الا قلة لاتهاب ، كما هى الحال مع ضياء ، محمد . اسمع أنه ضاق بالسجن ذرعا توجه لله ، يعبده كما لم يكن يفعل ، اسمع انه « دروش » ليته عرف أن مدرسة كاملة ، تسلمت القياد بعد أن أخرج اخراجا من المنظر العام . الشيخ انتا ديوب يرى اثار مابتدع ، وأحب لك أن تقف معى عند واحد من تلاميذه النجب ، لترى الذى أراه .

قرأت منذ سنوات منسوخة لكاتب من شاد أسمه بابكر جماع ، ولن أصدقك القول ان قلت انه سار سيرة الشيخ عن عمد ، لكنك سترى الذى أراه حين انقل لك من بابكر جماع قولته عن رابح الزبير ، اعواما بعد أن كتب الشيخ انتا ديوب عن حضارة وتاريخ وثقافة افريقيا على « النهج » الذى اختار.

يقول جماع ينهى تاريخه عن رابح « إن مكانه في التاريخ الافريقى ، مكان مارقى اليه كثيرون » وبالمناسبة . ليس لنا نحن فى السودان أن نجادل أهل شاد نقنعهم بان رابح سودانى دما ولحما وخلقا ، وقد أراده لهم جماع أن يكون منهم كما أراد بعض السياسيين فى سنين مضت أن تكون لهم بعض أرضنا ، وثار الجـــدال ، انتهى لوفاق ولعل واحـــدا من القادرين عندنا يعرب لنا «امبراطورية رابح » من الفرنسية ليجادلوا ونجادل على بينة ، اهو من هنا أم من هناك ، وإن كان جماع ، فى حكمته الحكيمة ، اضفى على رابح الجنسية القارية ، قبل أن تكون هناك جنسية قارية الا فى ذهن ديوب . تحدث عنه مواطنا افريقيا ، وهنا نلتقى مع شعب شاد ، نتقاسم الرجل وقد أفرقه جماع !

دعنى اوجز مارميت اليه حتى الآن ، ليسهل علينا أن نسير هذا الطريق الطويل . ماذا قلت ؟ قلت أن الجهود الذى ينفقها المفكرون المسلمون اكثرها ينصب فى النظر لامام ، اهتمامهم الاول أن يكون حاضرهم البحث عن هوية قلبه ، لا يقوم الاستقلال الوطنى على خواء . يقوم على ماض يكدحون يكتشفون حقائقه فى الكتب والمتاحف ، ويكدحون يكتشفون قلبه وعقله فى التجارب . انذر نفسه للاولى الشيخ انتا ديوب ، وانذر انفسهم للثانية روائيون ومسرحيون ، شنوا اشيبى يوم اعتصر من تجاربه « وتداعت الاشياء» ثم ولى سوينكا حين كتب شعرا مسرحياته العدة ، يحتفل بها العالم كله احتفاله بغيره من أهل الخيال من أفريقيـــا واجتفاله باهل العمل ، ثم خلقت هذه الكتابات مناخا عاما فى الفـــكر الافريقى المستنير . يقـــول سيكتورى مثلا ، وهو من تعرف ايمانا بقومه وافريقياه ونفسه « فرض علينا الاوربيون مصالحات ثقافية على الزمان الطويل الذى غزونا فيه وعلينا أن نكسر هذا الوثاق الذى حد من قدراتنا طول السنين ، تسرى فى دمائنا حضارة وثقافة الغرب فى يسر وعلى مهل ، بيننا وبين الحضارة الكونية والثقافية حواجز . على الانسان الافريقى أن يعيد النظر فى معارفه وفى احساسه ، ليقوم ثقافته

وحضارته تقويما جديدا ، يؤهله لدوره في ركب الحضارة الانسانية » ، وما كان سيكتوري حين دعا هاري لافونت يقيم في داره ، يطوع الايقاع الافريقي ، لادوات اوربا الموسيقية تخلق في النهاية ، بالى افريكان ، التى طوفت اوربا وامريكا وانتهت في لنكولن سنتر ، محط انظار نيو يورك ، قبلتها ، واعجبت المشاهدين ليالى عدة ، ماكانهازلا ، يمرح .

ايمان المثقف المسلم الافريقي بمستقبل وطنه الصغير وقارته الكبرى ، لايحده حد غير هذه الازمات التي يعيشها المسلم في اقطاره العدة ، في عصر العلوم التى فاتت عليه ، والآلات التى لا يعرف لها مكانا في حياته ، كالطفل حوله الحوادث ، يرعاها مبهورا ، لايعي . ربما كان انفع لك ولى أن اعرب لك اشطارا من قصيدة الشاعر الهندى ذو لفقار ، لترى الذى اعنيه بحال المسلم على ايامنا هذه . يرى لايعي ، لايستطيع أن يرد أذى أو يجلب منفعة . كتب ذو الفقار قصيدته ، وهي من أبين الشواهد على عجز مسلم اليوم واحزانه . كتبها ومدافع الصين على ابواب بلاده ، يقذف النار ، وقريته سيالكوت على الجبل تتلقى الضربات راقدة ، مافى وسعها أن ترد . كل قنبلة تشير إلى قصور أهله شيدت يوم كان لاهله شأن ، وتشير في الوقت عينه الى ماكان من شأنهم والتقدم الحضارى الآلى ، فاتهم موكب العلم والفن ، يعلن ذو الفقار في أسى ،طمأنينته وهو يقف على الحافة بين الشرق الحذر والغرب المعتدى . يصف حاله إنه في :

ستّرة موهير ، وقبعة كوردروى ،
النيران تندلع كل صوب قريته
وهو يرعى ، يرى
الصواريخ للسماء تنطلق ملفوفة بحمرة
غامضة ، تقتل ، تجرح ، لا يفقهون ،
يقولون يقول
الحسرة الكئيبة حولهم والهزال :

أضحت ادرعة جسدى الاسلامية
نحيفة هزيلة لا تغنى
فى وجه الصين الحاد القادر
لا تستحى كلها فضول ، كلها قحة
وادرعى حبيه

ثم يصرخ ذو الفقار صيحة العاجز وجه القوة العريانة ، لا مثل ، لا اخلاق ، منفعة ، وان التحفت بالمذاهب ، يقول يخاطب جده :

جدى جدى
علائم الدروب ، أين ؟
أنت تنظر للسماء العارية
إلا من صواريخ قادرين قاتلة .
أى وجهة تريد تتجه ، جدى ؟
ماعناك عمرك غير اسلامك
الملاذ ، الغطاء لى ولك .
ثم بعثتنى للغرب .
اكلت فيه خنزيرا وشربت خمرة
اية وجهة ، جدى ،
تريد أن نروح . أنلتقى . —

ويعود لشىء فى أحشائه ، مثله فى هذا مثل المسلم الافريقى ، يبصر قوة داخله ، حنطت الاسلام دينا على الاقل ، فى وجه العوائق المرعبة ، قليلها من فعل اعداء اهله ، كثيرها من صنع مسلمين تيسر لهم الثراء ، وضعت المنفعة الكبرى للاسلام فى مقام ثان ، والطموح السياسى فى مقام أول ، استمع لشاعر الهند يوجز هذا الذى يمسكنى عنه حيائى :

لم يعد للدين يا أخي
بالحزن صلة .
تريان انت هنا وهي هنالك
ذاك الكبرياء الذي رافق الاسلام .
كلاكما في سجن كبرياء رافق الاسلام منذ كان
تحلق في السماء مثلما يحلق المسلمون ،
حلقات ، حلقات ، في المسجد
ما الجدوى ؟
اين نتجه ؟

المسلم الافريقي غير بعيد عن هذا . يعرف هذا الحال كما يعرفه الناس في الشرق هنا واخوانهم في اروح كل مكان ، يسترعي انتباهك الجهد الذي ينفقه المصلحون . تذكر وانت تقرأ مايكتبون أو تسمع مايقول أتباعهم الذين تلقى ، زملاء لهم في المنطقة العربية اوائل هذه القرن واخريات القرن الفائت عبده ، رشيد رضا ، قاسم امين . ينقد المصلحون الافريقيون فئة المرابطين على النحو الذي نقد اولئك أهل الدين الذين ساقوا الطيبين والاخيار ، للسلطان حيث كان ، يعزز بهم يده . المرابطون في غرب افريقيا في عين هؤلاء المصلحين غير أهل لقياده . تاريخهم من أمجد ماتعتز به فئة ، لكن القادرين من أهل السياسة اتخـــذوا الكثيرين منهم، تكأة للبقاء في الحكم لمنفعة اوربا الغربية ، التي رحلت جزئيا عن تلكم الاقاليم . يقول المصلحون انهم مطايا هؤلاء ، وكانوا أعزة أجلة ، في القديم . ثم يروحون ينقدون في الطرف الاخر من الميزان ، فئة استحوذت افئدتها علوم وقدرات اوربا ، تحقر اهلها ومايعتقدون ، وتود لتنقلهم نقلا الى علوم وقدرات اوربا ، على ظهر ولأنهم القديم لمعتقدات لاتحول دون التغيير ، ولا يمكن للتغيير أن يقوم على قاعدة قوية ، إن وهت يد الايمان في افئدة الشباب . يقولون تعالوا للانسانية الغربية لأن الاسلامية الافريقية قعدت بهم عن حضارة هذا الزمان .

أبعد الدعاة صيتا على ايامنا هذه الشيخ حميدوكين ، الذى وقفت بك عند روايته « المغامرة الغامضة » يصور فيها الحيرة التى عرفناها فى « عصفور من الشرق » وما أدرى إن كان سامبا ديالو ، هو حميدوكين نفسه فى قصته ، وان أعجب أن كان . فى مشهد من مشاهد الرواية يسفه طالب زنجى احلام أهل سامبا ، يصف عجز السود أمام قدرات البيض فى العلوم والصناعة والفنون ، وينتهى من حديثه المسهب لنهاية يثور لها سامبا ، يقول ويقول « ان حاجاتنا الكبيرة الى الغرب لم تترك لاحد منا خيارا . السبيل واحدة لا غيرها . ان نسير الطريق التى ساروا ، لانسائل ، لا نكابر . »

« ان قبلنا هذا ، لن نكون عين الناس . سنغير من أنفسنا ولن نكون فى النهاية الا ادوات ، لا سلطان لها على الاشياء ، وهذه حال اوربا . تقودها من أنفها الأشياء ، وهى التى ابتدعتها . لن تبق من عزة الانسان فينا غير عزة الاغوات والبله ، لن نقوى الا على ماتقوى عليه هذه الالات فى المصانع ، وان ذهبت ريحنا نحن ، كانت والله نهاية الانسان انسانا على الارض » .

حميدوكين قوى الاحساس بافريقيته ، يهدف للانسان ، حيث كان أيا كان ما اعتقده ، تراه قريبا مما يقول سنقور على ايامنا هذه ، وبلايدن اخريات القرن الفائت ، مطالع هذا القرن . اتيا النهاية نفسها التى اتى اليها حميدوكين على لسان صاحبه سامبا ديالو . اتاها عن طريقه الاسلامى صار من تراب افريقيا ، وأتياها عن طريقهم المسيحى ، كما لم يتأقلم ويتأفرق الا فى وجدان ذوى البصائر والعمل . بعيد أن يكون شيخنا حميدو قد تأثر بهذين ، ولكنها البيئة الواحدة والمعضلات المتشابهة والديانتان العالميتان اللتان يصدرون عنها كلهم .

انتهى ثلاثتهم القصاص كين والداعية بلايدن والشاعر سنقور الى رؤية للانسان الافريقى متماثلة ، ويسترعى انتباهك أن الطلاب فى المعاهد ، يقتربون لهذه الرؤية ، تصدر فى جامعتهم حوليات يحاجون فيها التقليديين

من آبائهم واجدادهم . ينقدون المرابطين نقدا عنيفا عفا يقولون انهم دعاة جمود فرائسهم السذج والجهلة ، والاسلام مركزه ورحاه كبرياء الانسان ، حيويته .

أقام بلايدن نظرات على فهمه لما قال المسيح ، وينقله عنه نقلا ، يقدم له بأن السيادة والمجد نصيب الذين يخدمون . ينفعون الناس . والافريقى ، فيما دعا له بلايدن هنا فى القارة ، وهناك فى أوربا قد خدم الانسان ، قد نفعه « إن الله حافظ شيئا ما لقبيل من الناس ، كانت حيواتهم وما فتئت وقفا على خدمة الانسان . لقد سخرها الله لهذه الخدمة فى تاريخها الطويل ، وعنها ستصدر المعجزات تبهر اعين الناس ، اخريات ايامنا على الارض » اليس هذا عين ماقاله سامبوديالو وهو يتحدث للزنجى الذى سفه له اهله ، يعلمه أن خلاص البشرية ربما كان فى القارة الافريقية ، حيث يستطيع أن يعيش انسانا مع آلات وأدوات الغرب ، لايفقد مكانه فى الكون ، كما فقد الاوربى . إن الذى يقوله بلايدن ، كان يمكن لك أن تصرفه على أنه حديث صوفى تقدمت به العمر ، وهو يتنقل بين افريقيا وأروبا ، وما إقترب به السعى الحثيث لكثير مما أراد . حديث شيخ يسلى نفسه ، وقد أبت أوربا أن تصيخ لشىء مما قال فى محاضراته ، وكتب فى كتيباته . . لكنك تبعد عن الحق إن صرفته على هذا النحو . سنين بعده ، يتحدث الشيخ حميدو ، عين الحديث بلغة اخرى فى بيئة اخرى ، وتسمع صوت سنقور وماعنده مايشكو منه ، فقد عاش ليرى احلامه عملا ، قدر مايتحول حلم لعمل ، واعطته الحياة كفاء براعته وتاريخه . اكثر ، مما طمح له فيما يقول كثيرون . فى قصيدته الشهيرة « نيويورك » يسوق النصح لامريكا ، وليس بعيـــدا نصحه عن آراء بلايدن ، ورؤى حميدو :

أقول لك يانيويورك
دعى الدم الاسود ينساب انسيابا فى عروقك .
دعيه ينصب انصبابا فى دمك ، فى كل جارحة .

وينادى فى قصيدة مالقيت ذبوع اخواتها ، واسمها وحدها مشير ، اسمها « الرسالة » يقول فى مقطع منها قولة تراها فى كثير من شعره :

سيقبل الغزاة اقدامك
ياقارة السود والاحن اليوم
سيكون اطفالك الصليب الابيض
تاجا على هامتك
وذاك يوم قريب

قابل ، أخي بين الذى نقلت لك عن الروائى والداعية والشاعر ، تر الذى رأيت انا من وحدة فى الرؤى ، أتى كل واحد رؤاه عن طريقه . الجامعة هى التراب الذى يملى على الناس مايرون ومايحسون .

سذاجة أن تتحدث هذه الايام عن الافريقية . بقى من احلام روادها وعاء يحتوى الفكرة ضيق ، ضيق لاتكاد تمط ذراعها الفكرة قلمت اظافرها منظمة الوحدة الافريقية ، مخلوق مخلوط الرأى والوجهة ، مثلها مثل بنى تغلب من قصيدة عمرو بن كلثوم وإن كانت للقصيدة أب ، انا لا أعرف أبا للمنظمة أو أما ، ارتاب فى أنها اقحمت على الناس اقحاما ، لتلهيهم عن تطلعاتهم فى الخمسينات ، وحتى اعوام قليلة مضت ، وإن كنت لا أملك الا وساوس ، لا تدخل فى باب الشواهد . لكننا نسير اكثر مما ينبغى لنا ، إن اسرفنا فى تقويم القلق القائم والتيه المعجز . فى الطريق اضواء . واحدة من هذه العلائم ، مارأيت من رابطة بين ثلاثة عقول وقلوب . اجدفى هذه الرابطة ، أتت عفوا لا تخطيطا ، شيئا ينير الظلمة الحاضرة فى القارة . الثلاثة يتحدثون فى غير ما لقاء عن معجزة افريقية قابلة ، حديثهم كما قلت يقف على مشارف الصوفية عند النظـــرة الاولى . اعتقد من هذا ومن غير هذا من الظواهر اتجاها افريقيـــا متميزا فى العالم ، عقـــلا افريقيا له سماته مسلما كان ذلك العقل ، أو مسيحيا . انا لا اذهـــب المدى كله مع الذين

يقابلون بين ماتنتج هذه العقول ، ينتهون الى انها كتابات رسل ، رواد ، سينجم عنها — فيما سينجم — مريج من الديانتين يعين العيش الحميم والسير الجميع . اقدر القاعدة الفكرية التى تقوم عليها هذه النظرة للقابل ، لكننى ادرك أيضا أن الدين مكانه الوجدان ، لا الفكر . هذا من ناحية ، وهناك ناحية أخرى ، هى أن افريقيا ، كغيرها من القارات — لن تخلو يوما من الايام من أمثال الزعيم ناقاس بطل رواية شنوا اشيب « رجل الشعب » ، قوم من الساسة يعيشون فى ظلمات دهـاليز السياسة بعقولهم الماكرة وذكائهم الملتوى ووجدانهم الخرب يسوقون اتباعهم بالاغراء ، والارهاب والزيف ، يحولون دون أن يكون للقارة كيان واحد ، إذ لامكان لهم فى نطاق اوسع ، وسباق انظف . المثقفون الذين يقولون بدين مزيج ، اقتصاد متكامل ، ينسون وهم الطيبون أهل الخير ، أن الافريقى انسان . الانسان فى عمومه ، هلوع . اشباه ناقاس الذى ابدعه شنوا فاحسن ابداعه ،هى العناصر التى تعمل على التفتت ، تريد لتبقى الحدود التى خطها الاوربى ، لتبقى الخلافات القبلية ، وفروق الثراء بين كل قطر وآخر ، وداخل القطر ، ويعززون الولاءات المتضاربة للشرق الاوربى والغربى ، ويبقون هم السادة فى الواجهة .

كان فى وسع الدين أن يكون قاعدة روحية للسير نحو أهداف غير كبيرة الآن ، وفى النهاية البعيدة ، نحو الذى دعا له ويدعو له الآن ، الشيخ انتا ديوب ، لكن لن يطلق يده المحترفونه والمحترفون سياسات تعين ذاتهم هم ، لا مثل يحيون لها . اكره مع هذا كله ، أن تظن أن الشيخ يصرخ فى واد . ماهـكذا الامر . وعى رسالته — اخوان له وحواريون من المسلمين الافريقيين الذين يكتبون ويعانون المشاكل كما يرونهااليوم ، على ضوء ماضى من الجهاد للتراب ، والسذاجة فى السياسة ، وذاكخير مقياس للنظر الحاذق لشئون يومك ، ينيرها لك ماضيك . أحب أن اقدمك لواحد من حوارييه ، كيلا يجيء فى خاطرك انه مثل فريد ، لا يمثل شيئا أو افردا كما يقولون عن الصفوة ، جهلا عامدا كل حين اكثر الاماكن فى القـارة وجهلا جاهلا

بعض الاحايين .

اقدم لك شابا من مالى ، إن لم تكن عرفتهمن قبل ، انه يعمل فى حقل المصلحين الاسلاميين في غرب افريقيا . نموذج جديد لحميدو ، مبدع ساميا ديالو ، والشيخ انتا ديوب ، المنقب الذى رأيت واقدمه لك كى أشير إلى آن العثرات الافريقية يسعى لها قوم يؤمنون ، بأن الطريق مفتوحة ، على الناس أن يطرقوها ، عليهم أن يضعوا المصابيح . اقدم هامبتى با :

كتب هذا المؤمن بالمستقبل العريض عن تيرنو بوبابكر يضعه مكانه الحق في الاسلام الذى يراه هو لا المرابطون : دعوة للانسان سيلقى أخاه من أى دين كان ان أبقى كل على القيم الجوهرية للدين الذى به يؤمن . يكتب هامبتى بايستعين بالشيخ من بانديقارا يحمل لنا عبر منطقه رأيه هو فى الدين ، اسلاما كان أو نصرانية في القارة السوداء ، يريده عنصرا من عناصر التماسك والتراص ، لا عاملا آخر من عوامل التمزق وهى كثيرة رأيت بعضها قبل قليل . اتخذها هامبتى باحكيم بانديقارا مشجبا يعلق عليه افكاره هو ، وشيخنا تيرنو بوباكر واحد من الذين اوتوا الحكمة ، كانت حياته للوفاق . تذكر وأنت تقرأ سيرته فلاسفة الاسلام الأول ، وأحب أن يخاطبك وحده فى كلمات لا أنكر عليك أن هامبتى با خلط — عامدا أو غير عامد — بينها وبين كلماته هو ، وارجوك أن تذكر وأنت تقرأ ماسأنقل لك عن هامبتى وشيخه ، بعض الذى سقت لك من حديث القس كراوثر . إذن تر الاشياء رؤيتى. امام من الاسلام وآخر من النصرانية ، يقولان عين الشيء تقريبا ، لأنهما يصدران من جامعة رابطة ، هى الافريقية . ترى اضواء منها ، تتخيل معها قلب الواغلين اهل الهوى والغرض مغيظا يحقد . ان الشيخ فى بانديقارا ، كان ابدا يحدث اهله يقول : «ان بلاد السودان تعمها رسالة التسامح والاحسان والحب . ضربت مثلا يحتذى في دارالسلام . كله الان مكان غل وبغض ، وحقد وضيق ، نفذت جميعها الى الجسم السياسى فى الدار . المسلمون فى افريقيا عن هذا بمنجاة . » ثم يمضى يعلق

هامبتي على الذى يقول لنا انه سمعه عن شيخه ، ان صوفى بانديقارا ولد حيث كان ينبغي ان يولد. إنه ذو حظ عظيم ، وبحثنا لنصنت لكلماته الطيبات ، تسمع ونطيع . . . « لقد وضعت الجوهرة الذهبية على الاذن من خارجها » وانا اعرب لك حديثه حرفا حرفا ، لا تأخذ على أن لم « يقع » لك كلامه كله . . « اليوم تنتشر الكلمة من هذه البقعة الصغيرة المباركة ، نذيعها نحن للناس . » لن نأذن لانفسنا فى حديثنا عن تيرنوبوباكر أن نتحدث عن رسالته الكاملة . نريد له أن يتحدث كيلا يخال مرتاب اننا نتقول عليه . اسمعه هو نفسه يقول « انا ارقب بكل دمى واعصابى وقلبى الى يوم وفاق بين العقائد كلها والاديان على الارض يؤازر بعضها بعضا لتقويم الانسان ، وهو عجل لا يصبر على نفع ولا يصبر على ضر ، إن مسه واحد منهما خرج عن طوقه ؛ إن مسه الاخر جزع . إن سار لهذا الوفاق ، كان الوفاق ارضا صلبة يقف عليها يقاوم نوازع الشر ، يسعى ليبقى مع دوافع الخير ، ساعد الله معه ، والله هو هو وإن اختلفت اسماؤه . تعالوا جميعا ندع معا للحب والسماح والاخوة . » ثم يمضى شيخنا يتحدث كحـــلاج فى آخر الزمان أو الغزالى ، صوفى لا تعنيه غير جواهر الامور :

« إن الله واحد لا اله غيره والسبيل اليه واحدة ، السبل الاخرى تبع لها وفروع . هذا هو الدين الحق يقوم على عمد ثلاث : المحبة اولا ، التسامح ثانيا ، الاخوة ثالثا ، انا ادعونا لنسمى هذا الوفاق الذى يتطلع له ذوو البصيرة والعلم ، ويرجوه بقلب واجف كل خير . تعالوا نسميه الدهب المجمر : الوفاق اولا واخيرا » .

انا اشكرك بسمتك . هذه كلمات صوفى ، على أحسن تفسير وكلمات رجل يسعى ليجد نقطة التقاء بين الذى يؤمن به ، بنفع الناس فى الاخرى ، والذى يراه ينفع الناس هنا . لا يريد للمسيحى فى افريقيا ان يذهب بالخير كله ، ولا يريد للمسلم أن يقعد عن الخير كله ، رجاء الاخرة ، يصلى ومدافع الصين تدك سيالكو . ذكاء تمليه عليه غريزة الحـــفاظ على النفس

والعقيدة ، أمام القوة الغالبة ، لا قوة لقاء لها . لقاؤها ذكاء وادراك . اكثر من هذا اريد لك أن تقرأ هذا الكلام وتضعه مكانه فى الزمان الذى قيل فيه .

كتب شيخنا هذا الكلام عام ١٩٣٧ وماكان ذلك العام والذى قبله من أعوام الازدهار فى الشرق العربى الاسلامى ، أو دار السلام كما يسميه الشيخ . كان أعوام قحط ، لا احتاج أن اذكر لك أن بكر صدقى كان لا يعرف ماذا يفعل بالعراق وقد تمزقت تحت يديه ، وان النحاس كان يتحدث عن معاهدة الشرف والاستقلال ، وأن الازهرى ورفاقه عندنا كانوا يعلموننا فى المؤتمر وتحوطبهم المتاعب الماكرة ، واصداء هذا كله تجىء المسلم الافريقى وحيدا مستوحشا ينظر للشرق مصدر وحيه والهامه ، لايرى غير الخصام والظـــلام تلك السنين ، واقرأ كلمات شيخنا ، وفى ذهنى اشباه جميز مونتقمرى الذى مادخله يأس وهو يرقب الاوربى يحقر الافريقى ، رأى بعين الشاعر يومه ذاك ، يوم افريقيا الذى يعيش فى رحم الزمان ، يقول :

ليل افريقيا : نعم ، حالك السواد قاتم
سنونها الآن ضجر
سنونها الم
وفى الافق الذى اراه فجر ابيض اللون يعمه
سيره بطىء ، انا معك ، لكنه يسير .
ستعتق الايام فى الزمان قارة السواد
من نيرنا نحن الذى على رقاب اهله ثقيل
انا واثق ، انى أرى .
تلعق القارة جراحا مثخنة
هذا صحيح .
ستحيل هذا الذل والهوان
فنا نعشقه
ستعى يوما من الايام انها ان تحترب

نبقى هناك فيصلا بينها
يطول ليلها ، يطول مكرنا
ترى قبيلة انها غزت
ماترى عمى القوة يزدهيها بعض حين .
اوربا غافلة .
في وحدة القبائل المحتربة ، المنة
وهي آتيه ، اراها ، اراها .
قوتها في ان تسوق للواغل الماكر منا
تجارة ، منافعا مقابلة ،
سيدركون عندها ، فجور الاوصياء

والآن صاحبي . احب ان اذكر يدك على ان جئت معي حتى هنا ، فقد مشينا زمنا في غابة من اكثف غابات افريقيا وعرجت معي طرقاتها الملتوية ، حينا هنا وحينا هناك ، واخذتني واخذتك الدروب الضيقة والمسالك العدة ، اكثر من شق في الغابة ، إن كنت قد وصلت معي هنا ، رحمتني . معذرة . اقتضاك الحديث عناءً ، ارجو أن يكون امتعتك في بعض اشطاره . ماقصدت من بحثي حقائق تأخذها بيتك . قصدت ان اترك معك ذكرا تلح عليك وعواطف . لا أبرر التيـــه الذى جاء بك هنا ، حين أقول أن دليلي في غابة الفكر الاجتماعي ، كان الكاتب الافريقي نفسه . ماذا لمحت في الكثافة المظلمة المتشابكة ، مـــاذا ترى امامك وراء غابتنا الخضراء ، وقد سرت خطوات ، شوكها يعوق ، رقراقها كثير أوجز القول :

الافريقي متدين بطبيعة مزاجه كان هكذا وسيظل المسلم الافريقي لا انفلاق في شخصيته ، واحد جميع داخل نفسه ، وداخل بيئته الغليظة القاسية . يعينه ماسيكون من أمره ، والانعتاق من النفوذ الاجنبي ، على لابواب . يبحث عما يريد أن يفعل بحريتـــه ، ماالذى يضع في االوعاء الجديد ، وقد تسلم انماطا واخلاطا من الثقافات والحضارات عبرالسنين ،

ينسجم هذا الخليـــط احيانا ومقتضيات حياته المستقلة الآن ، ولا تنسجم واياها أكثر الاحايين . شيء واحد حقيق بأن يعينه على تقويم فلسفاته ، واقتصادياته ، وثقافته . انه يدخل العهد الجديد دون جراح كثيرة تثقل كاهله . ما كذلك المثقف المسيحي ، وعده المنصروه الثريا ، وألفى نفسه جنب سهيل . اكثر مايكتب الكاتبون منهم ، ويشعر الشعراء ، يصور المنظمات المسيحية ، قالت له المسيحية الحقـــة انها تعنى أنه أخو الابيض ، وقرأ الكتاب فاذا هو حقـــا أخو الابيض والأصفـــر والاسمر ، واذا المسيح شاب مثله تربطه به رابطـــة الشباب والمثل ثم يدخل الكنيسة يلقـاه . إن الذين يقولون انهم يحملون كلمته ، غير جديرين بحملها . كلاهما ، المسلم على اسلوبه ، والمسيحي يلتقون في نماذج من القلق تختلف ، لكنها قـلق ، نهاية الامر . العبء ثقيل ، لكنه غير ميئس . الافريقي يحيا هذه الايام عين الحياة التي عاشها الاوربي قبل أن يضيق وينفجر قبل ثلاثة قرون ، تتناوبه كل ريح ، رقيق الملوك ، رقيق الصدف ، وفئة من الرجال طموحها يغل انسانيتها ، كما يصف جوش دن اهل زمانه . المسلمون الذين يعملون ، لايكتفون بالتقى والورع ، يبحثون في عزم يوثقونه بتراثهم القديم والحديث ، عن طريق اسلامية وسط . التقليديون لا يرون في الجديد خيرا ، يريدون للأهلين أن يقبعوا حيث هم في « تكلاتهم » يجيئونهم هم بسيارات واضماخ باريس ، يدعون لهم بالخير والبركات ، يتركونهم يرددون قالة ماقيلت أكبر الظن الا لينخدع الناس عن انفسهم « ليس في الامكان ابدع مما كان » . يجيئهم بعد هؤلاء قوم احنا كهم محنوفة للغرب أو الشرق ، ايمانا كان ، اغراء كان ، أو عجزا عن العيش المستقل ، يفقدون الاعتدال الذي تقتضيه الحياة الجديدة ، لا صبر عندهم على مشقات بنائها وحفر اسسها بالاسنان لتحيا القيم المعاصرة ، جنبا مع القيم الاسلامية .

واستيقـــظ يوما المثقف المسيحي ، يستقرىء تاريخ المسيحية ، في القـارة على مهل ، تضيء الطريق الصفوة الخـــيرة من ابنـــائها . تذكرت

زمانا بعيدا كانت المسيحية فيه روحا لاتنظيما ، كتابا لا كنيسة خلقا سمحا لا طموحا لسلطان . قرؤا عن البابا بيوس الثاني مثلا ، وماقفوا عنده ، لأن الكنيسة اتخذت واحدة من طريقين في القارة : وقفت حيية متأنفة بعيدة عن حال « القطيع ». ماضر هذا الموقف .كان اثقل على النفس الكنيسة التي وقفت تحور الكتاب ومواقف المسيح ، تؤازر به يد البيض كما تفعل في جنوب ووسط افريقيا ، مافتئت يد البيض هي العليا هناك ، انهم — إن أردت المقابلة — اشباه المرابطين في بعض اقطار غرب القارة ، ولا أقول هذا اعتباطا فالمرابطون المحدثون سلالة قوم ذوى عزم وعزة — والضالون في الكنائس حواريو وطلاب علم بيوس الثاني ، اول صوت ديني وقف في وجه تجارة الرقيق وتجارها من أهل النفوذ والمال ، في القرن الخامس عشر ، وهم ورثة افكار فئة من القس والرهبان ماتهيبوا احدا عام ١٨٧٠ ، حين تجمعوا — وهم قلة قليلة مزدارة وسألوا البابا أن يقرأ الكتاب في جوهره لاحرفه ، ويزيل منه لعنة الزنج التي لصقت بهم لكونهم زنجا فحسب : أناس غير الناس . لقيت هذه الفئة أذى وعنتا ، لكني اراهم في قبورهم يعجبون من أمرهم ومن أمر ايامنا هذه التي تهتز فيه الكنيسة اهتزازا من اصوات علماء احرارا فيها وقسيسين ورهبان .

واذهب مع الحمق اصور المستقبل كما يتراءى لى هذه اللحظة من التاريخ الافريقي . لن تفقه يورمريكا . حماها قواها عن التواضع . هذه واحدة . الاخرى انها تستخذى حين ترجو منفعة . القوى الكبرى ماعادت تعرف غير الذى يزيدها قوة ، لا يزعها وازع عن هذا . اجسادنا لها جسور . استأسدت لأنها تعرف القشور عن القارة ممن يقولون انهم يفهمون اهلها وارضها ، يقيمون اسابيع أو يقرأون مايكتب ويقول صغار القوم منا صغار الاحلام ، يخفون لموائدهم كلما دعوا لها ، ويثرثرون بالذى يعرفون ولا يعرفون ، ان يورمريكا ستقنع بهؤلاء حتى يجيء خلق جديد ، أو تضطر اضطرارا لتستخذى من أجل الحفاظ على منافعها ، ان تجمعت القوى

الافريقية بشرية ، مادية ، حضارية ، لاعلى المثل التى عاش لها الرواد الاولون فتلك غير ميسورة الآن بل على حد ادنى يخيف القـــوى الكبرى على مصالحها ، فما رأيت فى الذى رأيت ، مذهبا أو فكـــرة الا وهى غطاء لمنفعة . . لو بعث حيا مكافللى لعجب للذى كان يدعو من صفات لاميره . إن دبلوماسية وسياسات يور مريكا فى هـــذا الشطر من القرن العشرين فاق كل الذى تصور ذلك الداهية .

ستسعى اوربا وامريكا لتزحف نحو ارواح الملايين التى لم تعتنق دينا بعد ، فالمسلمون ، والنصارى فى القارة ، ليسوا الاكثرية وسينجحون هذه المرة فى أن يكسبوا افئدتهم ، فقد لقنوا دروسا من الافريقى المسيحى ماكانوا ليلقوا اليها بالا ، لو لم تكن لهذا الشباب اقلام تبين . دلائل هذا الذى نقول قد بدت فى الافق . ترتفع فى الكنيسة اصوات جسوره تدعو لنهج فى التبشير بكلمة المسيح يتفق وقوالب الفكر الجديد والنماذج الحضارية الوافدة منها والقديمة . بعبارة اخرى يدعو لقس جديد ، لايدعو للكتاب فحسب بل يخدم اهداف التقدم مع الافريقى ندا لا سيدا ، قس يعبد الله ، لاينكره ، لكن يراه راعيا معينا للانسان هنا ، فالافريقى الجديد كما رأيت رجل تعنيه الاعمال ، لا الفكر وان كان يحترم الفكر ، ويرى الدين قوة فاعلة تعينه قيمه الباقية فى بحثه عن اسلوب للحكم ، عن نظام واحد منسق يخرج من هذه الاقطار العدة اصيلا لايفدها من الخارج ، يعينه فى خلق قوالبه الجديدة للمجتمع الذى ورثته افريقيا عن أوربا ، قوالب تحتوى ثقافته التقليدية والمكتسبة لا تصطدم ، تذوب فى بعضها ، تخدم النمو الاقتصادى والسياسى ، باقل مايمكن من اوجاع ميلاده الجديد . هذا عندى جوهر الرابطة الافريقية : بحث الانسان المعاصر فى القارة عن وسائل توفق بين ماضيه وحاضره ، وهنا يلتقى المسلم والمسيحى والملايين ممن لم تصلهم رسالة من الرسالات السماوية . لايدرى الواحد ماذا سيكون من أمر قس الكنيسة الذى يريده الرواد لكنه لن يكون ذاك الذى رأيت فى قصصهم ورواياتهم التى عليك عرضت .

قصة انتشار الاسلام لن تكون أيسر . سيعتمد ذيوعه على كيف يسلك المسلم الافريقى لقاء الجديد مما هو قادم ، وسيعتمد كثيرا على العرب فى القارة وخارجها ، فالاسلام يرتبط ارتباطا وثيقا بهم ، مهما كان من امرهم الآن . هم الذين رأوا نوره قبل كل راء ، واذاعوا ضوءه بادىء الامر فى كل ركن . وتولى الامر معهم غيرهم من بعد . يد العرب واهنة واهية اليوم ، ويسعد القوى الكبرى فى الشرق وفى الغرب ، ان ظلوا كذلك ، يتلاومون يتجادلون ، يقروا هم عينا ، فما هناك قوة اخرى غير القوتين الاعظم الا قوة العرب الجميع ، سيدقون رقابهم دون أن يكون ذاك الجميع . الصراخ الذى تردد اصداءه جبال افريقيا وهضابها ، يقول أن الاسلام يكتسح افريقيا صراخ متعمد ، لا صراخ مشعوذين ، كما يقول بعض رفقتى من المسلمين هنا والمسيحيين . صراخهم يريد ليؤلب المسيحية فى القارة وفى العالم العريض على الاسلام فى افريقيا . كل ضعف يصيب العرب عقبة فى طريق ذيوع الاسلام فى القارة . دنياك من عاداتها الا تكون لاعزل . رأيت وحقك بعينى فى مدينة من مدن القارة ، رجلا ادمع حين عرف انى جئت ذاك المكان القصى امتع نفسى بخضرة المكان ، وحلاوة النساء ورجالة الرجال . كان قد مضى الليل الا اقله ، وسأل عن اسمى ، واسماء السفراء يغفلها الناس ، يكتفون باللقب ، صاحب السعادة وطال الحديث واذا هو مسلم يلتحف بالنصرانية ، كلا يفقد ذاك المقام ، مقام محافظ مقاطعة ذات مكان . أرأيت ما أعنى بالذى اقول ، دنياك من عاداتها الا تكون لاعزل ، سلاح هذا الخائب النفاق ، لاتشفع له الدموع التى رأيتها رأى العين .

الانسان الافريقى لايجد الآن فسحة من الوقت ليتدبر فيها نظرات السياسة والاقتصاد واهداف بعد غد . يوزومريكا تستطيع ان تحول دون العـــداء الروحى بين أهل القارة ، إن هى استطاعت أن تمسك نفسها من الاسلوب الدعائى اليورمريكى يعتمد على البهرج والفصاحة الجوفاء ، يسمونها عندهم العلاقات العامة . عليها الا تعمل ليحل الاتصال العام محل الاتصال

الشخصي . ماجنت يورمريكا من اسلوب العلاقات العامة الا ضياع الشباب وتمرده ، لاتجد مواهبهم مكانا في زحام الدعاية والهرج ، ولن يجدى افريقيا أن تأخذ هذا الاسلوب عن دعاة الاتصال العام . ليظل الافريقى انسانا لا اداة في يد من يقتـــاتون بالخدعة وعلى الخدعة . رجال العلاقات العامة يطوفون افريقيا ، ثم يعودون اهلهم يتحدثون عن « مقاومة التسرب الاسلامي » في القارة ، ويتحدثون عن الاسلام كأنه وباء ، لا يعرفون أن الاسلام يجد طريقه سهلة معبدة في وجدان الافريقي لأنه « علم المعتنقيه من الافريقيين أن العبادة في مساجد الله تجمع العناصر جميعها وتحثها على الاخوة »، كما يقـول اكثر الافريقيين مع السيد موكرى . . أنا لا أعتقد أن هناك خلافات دينية في افريقيا ، مصاعبها تتصل بحياتها الجديدة ، ولا يلجأ للدين عنصرا من عناصر التفرقة الاساسيون انذال يريدون ليعووا من وراء الاسوار ، ضد بعضهم البعض ، لا ليجادلوا بالتي هي أحسن .

هذه نواح سلبية في أمر الصراع على روح افريقيا ، لكنى احب لنا أن نرى نواحي اخرى ايجابية ، ينبغي أن تقوم على الاتصال الفكرى في داخل القارة أو بين القارة وغيرها من القارات . العزلة التي يعيشها المسلم الافريقى في القارة اتعس من الجهل الذى تعرفه عن الناس الذين لا يعرفون عن القارة الا انها « بلد »، وانا لا اتحدث عن العامة ، اتحدث عن الصفوة . كتابات خالد لم تصل الا إلى القلة تعدها من الذين درسوا العربية ، فشل سيظل مع الناس إن لم تيسر سبل الطبع والنشر والترجمة،ويسير جنبا لجنب معها تقويم ذكى لما يطبع حين يترجم . ربما كان خالد نايا حزينا في واد والصاحبون في واد ، لكن اعطنى الناى الحزين كل مرة ان كان يصدر عن قلوب كقلوب خالد ، تجهد لتفهم وان عزت الوسائل . فشل مماثل ان كتابات القسس الاحرار ماوجدت طريقها للعربيـــة بعد . . جاك مندلس صاحب « الله والمسيح والجوجو في افريقيا » لا اعرف كتابا صغيرا حقيقيا بأن يقرأه القارىء العربى اكثر انارة من هذا ، ان اراد ليعرف شيئا عن أثر الدين في العقل الافريقى ،

ومعنى الدين في جوهره .

جاك مندلس هو خالد محمد خالد النصارى . ان تحركت من هذا الذى الصعيد ينفع الجمهرة ، وجدت ان اشياخنا العقاد وهيكل ومحرم ، ماوجدوا طريقهم للقارىء الافريقى ، وترمنقهام ، قل ماشئت عن علمه ؛ لم تجـــد كتبه طريقها للعربية ، وهى مناجم معرفة ، مهما كان من امر وجدانه . العلم رداؤه والغاية ضلال . لنا العلم . ضلاله لاعمد فيه . كلنا فى اسار ماربينا عليه . الذى يهمنا الآن هو أن تشرع المؤسسات العلمية فى الاتصال الفكرى عبر كتابات علمائنا وعلمائهم ، وقادة فكرنا وفكرهم لنقض على هذه العزلة الفكرية في يوم أرجو أن يكون غير بعيد . .

جامعة الخرطوم

مطبوعات دار التأليف والترجمة والنشر

الكتب العربية التي صدرت

الكتاب	المؤلف
«١» دراسات في الأدب والنقد	الاستاذ معاوية محمد نور
«٢» قصص وخواطر الجزء الثاني	الاستاذ معاوية محمد نور
«٣» الحركة الفكرية في المهدية	د . محمد ابراهيم أبو سليم
«٤» الضرائب في السودان	د . على أحمد سليمان
«٥» معجم المصطلحات القانونية	د . سعيد محمد أحمد المهدى
«٦» اجراءات تحرير الاقتصاد السوداني	د . عثمان حسن سعيد د . عبد الرحمن الطيب على طه
«٧» تاريخ دارفور السياسي	الاستاذ موسى المبارك
«٨» البحر القديم « شعر »	الاستاذ مصطفى سند
«٩» سالى فو حمر « قصص »	الاستاذ جمال محمد أحمد
«١٠» نماذج من الأدب الزنجي	الاستاذ على الملك
«١١» تأميم المصارف في السودان	لجنة الدراسات الاقتصادية بنك السودان
«١٢» دبلوماسية محمد	د . عون الشريف قاسم
«١٣» الصهيونية وعداء السامية	د . ابراهيم الحردلو
«١٤» كوبا الجزيرة التي احببت	د . يوسف بشارة
«١٥» طبقات ود ضيف الله «تحقيق»	د . يوسف فضل حسن
«١٦» أعمال الليل والبلدة	الاستاذ ابراهيم اسحق
«١٧» الصحافة السودانية في نصف قرن	الاستاذ محجوب محمد صالح
«١٨» الأرض الآثمة « مترجمة »	الاستاذان : صلاح أحمد ابراهيم وعلى الملك
«١٩» الشعر الحديث في السودان	د. محمد ابراهيم الشوش
«٢٠» مصادر الدراسات السودانية	الاستاذ قاسم عثمان نور
«٢١» بمانخي « مترجمة »	د . متوكل أحمد امين
«٢٢» الجريمة والعقوبات	د . سعيد محمد أحمد المهدى
«٢٣» ظلال شارده	الاستاذ محمد محمد على

«٢٤» دراسات سودانية	د . عبد المجيد عابدين
«٢٥» خواطر طبيب	د . محمد سليمان شاهين
«٢٦ ، ٢٧» الفكر الاسلامي والفلسفات المعارضة (جزءان)	د . عبد القادر محمود
«٢٨ ، ٣١» أفق وشفق «٤ أجزاء» «تحقيق»	الشاعر توفيق صالح جبريل د . محمد أبراهيم أبو سليم ومحمد صالح حسن
«٣٢» نحو الغد	محمد أحمد محجوب
«٣٣» القصة الحديثة في السودان	الاستاذ مختار عجوبة
«٣٤» نماذج من القصة القصيرة في السودان	الاستاذ مختار عجوبة
«٣٥» مبادىء الكونيات	الاستاذ الامين محمد احمد كعورة
«٣٦» صحو الكلمات المنسية	النور عثمان ابكر
«٣٧» مسائل في الابداع .	الاستاذ جمال عبد الملك ابن خلدون
«٣٨» اطفالنا غذاؤهم وصحتهم	دكتور حافظ الشاذلي
«٣٩» حصار وسقوط الخرطوم	ميمونة ميرغني حمزه
«٤٠» أدب وادباء .	دكتور محمد أبراهيم الشوش
«٤١» التربية من اجل الاعتماد على النفس	ترجمة الاستاذ على التصرى حمزه
«٤٢» اتجاهات وميول الطلاب	د . السماني عبد الله يعقوب د . عزيز حنا داؤد
«٤٣» محمد على في السودان	دكتور حسن أحمد ابراهيم
«٤٤» غربة الروح	دكتور ابراهيم الحاردلو
«٤٥» تصدع وقصص أخرى .	الفائزون في مسابقة المجلس القومي للآداب والفنون
«٤٦» نداء المسافة «شعر»	تيراب الشريف
«٤٧» العودة إلى سنار .	محمد عبد الحي
«٤٨» الرحيل في الليل	الاستاذ عبد الرحيم بو ذكرى
«٤٩» في المسرحية الأفريقية	الاستاذ جمال محمد أحمد
«٥٠» الشرافة والهجرة	محمد المهدى مجذوب
«٥١» المهدية والحبشة	محمد سعيد القدال
«٥٢» القصيدة المادحة	د . عبد الله الطيب
«٥٣» حوار مع الصفوة	دكتور منصور خالد

دوريات عربية :-

مجلة كلية الآداب

كتب تصدر قريباً :

«١» مدينة من تراب	الاستاذ على الملك
«٢» رسائل عثمان دقنه	محمد ابراهيم ابو سليم
«٣» الدين في الاطار الافريقي	الاستاذ جمال محمد أحمد
«٤» مقدمة في الرياضيات الحديثة	الاستاذ عبد الله صالح حامد .

هذا الكتاب

من « مطالعاته » في الشئون الافريقية ثم « سالي فو حمر » والى « المسرحية الافريقية » . . يظهر ولع جمال محمد احمد غير خاف بشئون افريقيا ومنابع ثقافاتها . . ولع المدرك المتقصي . . من يريد ان يعرّف بهذه الاداب ويقدمها . . ولع من وجد فيها ثمرات طيبات فآثر الا يؤثر بها نفسه وحدها فهو يقدمها للقارئين غير ضنين . . لقد جعل الاستاذ جمال يدق في هذا الجدار الافريقي الصلد حتى بصر به الناس ، فأتجهوا بأنظارهم الى تلك النافذة وذلك الضوء المنبعث عنها . . فعرفنا قدراً من اساطير افريقيا الغنية بالاساطير ، وحكايات اقسام من اهنها لم تتيسر لنا معرفتها من قبل . . انبأنا جمال عن « لنقو » و « شانقو » و « سنيرم » وحدثنا عن « سقاي » وعن « كلارك » واضرابهما . .

وهو هنا في سفره الجديد يقدم رحلة في الاعماق الافريقية نبيلة السواد » ويقص علينا ما كان من شأن الديانات الوافدة والديانات الموروثة . . وقصة الصدام الحتمي — ان كان عنيفا او كان هينا ... في الوجدان الافريقي . يقول :

« لم تدخل الديانتان الكبيرتان النفس الافريقية بالسرعة التي يقول بها بعض الباحثين . عشرة قرون الان والاسلام يلتقط طريقه بالتجارة و اللقاء المسالم احيانا ، والحرب بعض الاحايين . قرنان أو اكثر منذ جاءت المسيحية القارة ، ولكن قرابة سبعين مليونا من الناس مازالوا على دين آبائهم . . »

ان هذا الكتاب لايعرض مادة جديدة وحسب بل هو امتداد لما يمكن ان نسميه — بغير كثير حذر — لغة جمال محمد احمد . . تلك التي تدخل الاذهان والافئدة غازية مقتحمة . . وهي قادرة لاصالتها ان تقتحم . ربما قاومت زمانا ، ولكنك لابد ان ترفع راية الاستسلام حين تنح عليك بسحرها . .

هذا كتاب جدير بالقراءة . .

علي الملك



طبع بدار الطباعة - جامعة الخرطوم

صمم الغلاف عثمان شبر